دكتور
نجاح محمود الغنيمي

محمد أسد
ودوره في الفكر الإسلامي المعاصر

الطبعة الأولى
١٩٨٧
دار المنار للطبع والنشر والتوزيع

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

دكتـــور
نجاح محمود الغنيمي
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
فرع البنات ـ جامعـة الأزهر
القـاهرة

محمد أسد
ودوره في الفكر الإسلامي المعاصر

الطبعة الأولى
١٩٨٧

دار المنار للطبع والنشر والتوزيع

مستل من مجلة الزهــراء
كلية الدراسات الاســلامية والعربية
للبنات جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة

العــدد الخامس – جمادى الآخـرة ١٤٠٧ هـ / يناير ١٩٨٧ م

رقـم الايداع ٦١١٥

دار المنار للطبــاعة والنشر والتوزيع
٩٩ شارع الباب الأخضر ميدان سيدنا الحسين
ص ٠ ب ٦١ هليوبوليس

تمهيد

البحث الحالى كتب ، بادىء ذى بدء ، للمتخصصين فى الدراسات الإسلامية العقـدية • ولكن ذلك لا يمنع أن يشارك فى ذلك بنصـيب جمهور القـراء المثقف من غير المتخصصين ، لأن موضـوع البحث له إطلالات متعددة ، وانظار شتى ، حتى فى مجال الأديان ، وهو المجال الذى حظى بنصيب الأسد فى بحثنا هذا •

وفكر محمد أسد ، يمثل تجربة فريدة فى عالم الوجـدان والروح والعقل ، ينبغى أن يعيها أبناء الاسـلام جميعا خاصة من يطلق عليهم محمد أسد اسم (المتنورين) وهم الذين تشربوا تراث الغرب ، ، فكرا وروحا ، فزهدوا فى تراثهم الاسـلامى الأصـيل ، على غير أساس • واذا كان للاسلام فكره الوانسع الجنبات ، الذى شـمل كل ناحية من نواحى الحياة ، فعالج امراضها واسقامها ، فان تجـاهل هذا المورد العذب ، والتنكر له جريمة بشعة فى حق هذا الفكر ، وفى حق الانسانية، خاصة العصر الحالى •

وفى تجربة محمد أسد هذه : نراه يدعونا لمشاركته فى تجربته ، وفى أنظاره حول الدين عموما ، والديانات السماوية الثلاث بصفة خاصـة : اليهودية ، والنصرانية ، والاسـلام ، وأسـباب كراهيـة الغرب للأسلام ،ونتائج هذه الكراهية • وتقليد المسلمين للغربيين فى نظم التعليم وطرق الحياة ، وخطورة ذلك ، وعلاجه • كل ذلك ناقشه محمد أسد فى عرضه عبر رحلة حياته فى البحث عن الذات •وهذا البحث اسهام متواضع فى التعريف بهذه الشخصية وبفكرها ، فى محاولة لإبراز دوره فى الفكر الاسلامى المعاصر • وبالله تعالى التوفيق •

دكتـور

نجـاح محمود الغـنيمى

مقـــدمة

رسالة الاسلام ، خاتم رسالات السماء ، الى البشرية جمعـاء ، صالحة لكل زمان ومكان ، وهى تحوى مقتضيات هذه الصلاحية ، قوامها أسمى ما عرفته البشرية من مبـادىء وقيم ، على جميع المسـتويات ، والمجالات سواء فى الجانب الدينى العقدى ، أو فى الجانب الاخلاقى الفرد والجماعة ، أو فى الجانب الاقتصادى والسياسى ، وباختصـار فى جميع المجالات والانشطة التى عرفتها البشرية ، فى تاريخها الطويل ، على مر العصور والازمان ، الى آخر الزمان ٠

وهذا السمو والتكامل فى مبادىء الاسلام وتعاليمه ، جذب، اليه ملايين البشر ، منذ ظهوره حتى الآن ٠وأصبح مألوفا فى الوقت الحاضر ، أن نسمع بين الحين والحين عن اعتناق شخصيات كبرى ، من الشرق أو الغرب ، الاسلام انبهارا بجاذبية تعاليمه ومبادئه ، منهم : اللورد هيدلى الانجليزى ، رينيه جينوه ، الذىتسمى باسم (عبد الواحد يحيى) ، الفونس اتيين دينيه الذى تسمى باسـم (ناصر الدين دينيه) ، (١)

---

(١) انظر الدراسـة المختصرة التى قام بها الامام الأكبر الدكتـور عبد الحليم محمود عن هذه الشخصيات فى كتابه : أوروبا والاسلام ، ص ٦٧ وما بعدها ، القاهرة ١٩٧٩ ٠

وكذلك روجيه جارودى ، وليوبولد فايس الذى اشتهر باسم (محمـد أسد) • ولا شك أن لكل واحد من هذه السلسلة من الشخصيات الغربية الكبرى قصة يحكيها عن كيفية انجذاب نفسه الى جوهر الاسلام ، فلبت نداءه ، وهجرت ماضيها الوثنى ، لتعيش حاضرها المعاصر ، ومستقبلها ، فى رحاب الاسلام • واذ كنا نرى أن محمد أسد له ثقل خاص ، من حيث الدور المزدوج الذى اسهم به فى كل من الفكر الاسلامى المعاصر ، وكذلك الفكر الدينى الغربى المعاصر — فاننا نخصه بالبحث الحالى ، للتعريف به ، والقاء الضوء على أفكاره ، وعلى دوره فى الفكر الاسلامى المعاصر •

ومحمد أسد ليس شخصية عادية ، بأى مقياس من المقاييس : فهو أوروبى فى نشأته ، وفى تعليمه ، وفى ثقافته وفى نضجه الفكرى •• وقـد درس علوم عصره ، كما شارك فى بيئته العـامة والخاصة ، كيهـودى أوروبى ، ودرس الفنون وعلم النفس والفلسـفة والتاريخ ، والعلوم النظرية فى الغرب عموما • كما قد مارس مهنا فكرية وفنية عديدة ، ليس من أقلها الصحافة ، وكتابة السيناريو • ولا شـك أن ذلك أضـاف الى خبرات محمد أسد وشخصيته الفكرية والفلسفية الشىء الكثير •

وهذه الخبرات والملكات التى اكتسبها محمد أسد فى بيئته الأوروبية العامة والخاصة ، صاحبته فى رحلته الى الشرق ، وفى تنقلاته بين ربوع بلاد المشرق الاسلامى ، وفى تأملاته وانظاره فى الاسلام والمسلمين • ورغم انبهار محمد أسد بما رآه فى الشرق عموما ، وفى الاسلام والمسلمين بصفة خاصة ، فقد ظل مسيطرا على اتزانه الفكرى واللغوى ، بحيث أنه نجح ليس فحسب فى اشراكنـا معه — نحن أبناء الاسـلام — فى هذا الانبهار ، وانما كذلك فى اقناعنا بمبررات هذا الانبهار • وقد أعانه على ذلك كثيرا : نفاذ بصيرته ، وحضور بديهته ، ولماحية فكره ، وسيطرته التامة على أساليب البيان ، بحيث أن القارىء لمؤلفات محمد أسـد ، سواء فى لغتها الأصلية ، أو فى ترجماتها الى العربية ، لا يملك الا أن يترك نفسه طوعا ، للمؤلف ، يقوده حيث يشاء •

وعلينا أن ننبه ، بادىء ذى بدء الى ما ينبغى أن ننتبه اليه فى فكــر محمد أسد : لقد قدم لنا عرضــا دقيقا للحضارة الغــربية المعاصرة ، باعتباره ابن من ابنائها ، الذين عاشــوا فيها وخبروها جيــدا ، مبينا ما فيها من ايجابيات ، وهو قليل ، وما فيها من سلبيات ، وهو جم غفير . وقد تتبع جذور كثير من هذه السلبيات الى بداياتها التاريخية الأولى ، فى تاريخ الغرب الأوروبى — كما سنراه فيما بعد فى تتبعه لمبدأ المنفعة المادية فى الغرب الحديث الى أصوله فى الحضارة الرومانية القديمة ، وكذلك مبدأ العنصرية العرقية ، وغيرهما . كما سلط اضواء فكره على الدين عموما ، والديانات الثــلاث الكبرى : اليهــودية ، والنصرانية ، والاسلام خصوصا . ورفض اليهودية والنصرانية كما رفض الغرب ، وقدم مبررات رفضــه ، وهى مبررات مقنعة . وقدم لنا عرضــا جميلا للاسلام ، حسب مراحل اكتشافه له ، الى أن وصل الى لحظة ســطوع الحقيقة ، واعتناقه الاسلام ، ثم تأملاته وانظاره الفلسفية حول الاسلام ومبادئه . وهو لم يكتف بذلك ، بل بين لنا جذور كراهية الغرب واحتقاره للاسلام ، وهو جانب لم يتيسر لاحد من مفكرى الاســلام المعاصرين الوصول اليه قبل محمد أسد ، خاصة باستخدامه معطيات علم النفس التحليلى ، كما بين لنا خطورة تربية أبناء المسلمين على النمط الغــربى فى التربية والتعليم ، وبين ما ينبغى أخذه من علوم الغرب ، وضوابط ذلك وقيوده ، كما قدم البدائل ، وأوضح خطورة تقليد الغرب عموما فى سلوكه وفكره . ومن الطبيعى لمحمــد أسد وقد تناول هذه الميــادين الواسعة من الفكر ، أن يتعثر هنا وهناك ، وأن يكبو بين حين وآخر ، ولكن هذه الهنات لا تؤثر على صورته العامة كمفكر مسلم معاصر . وقد أخذ بآرائه كثير من الشخصيات الكبرى فى الفكر الاسلامى المعاصر ، سواء بطــريق الاقتباس المباشر ، أو غير المباشر على نحو ما ســنراه فى موضعه . وعلينا الآن أن نتابع سويا رحلاته فى عالم الحيــاة والروح والفكر :

حياة محمد أسـد :

ولد محمد أسد فى صـيف عام ١٩٠٠ م ، باسـم ليوبولد فايس Leopold Weiss وكان ترتيبه الثانى بين اخوته الثلاثة ، فى مدينة لوو البولندية ، والمعروفة كذلك باسم لمبرج ، وكانت حينئذ جـزءا من النمسا (٢) ومن الواضح أنه أمضى طفولة سعيدة للغاية ، وهو يعبر عن ذلك بوصف تفصيلى للشـارع الذى كان فيه بيته ، والمباهج التى كان يسعد بها فى اللعب فيه ، وكذلك شهور الصيف التى كان يقضيها فى الريف ، فى ضيعة جده لأمه ، وكان يلهو كثيرا فى الجداول والحظائر التى تمتلىء بالابقار ، ومناظر الفلاحين فى الحقول ... الخ (٣) • وهو يذكر فى طفولته كذلك الرحلات التى قام بها فى صـحبة والديه الى فيينا ، وبرلين ، وجبال الألب ، وغابات بوهيميا ، وبحر الشمال ، وبحر البلطيق ، وما اكتنف ذلك من مباهج ومتع • كما يذكر أترابه جميعـا من صبية وفتيات ، وكانوا يلتقون فى أيام الآحـاد ، ويمضونه فى الرحـلات الى الضواحى سيرا على الاقدام • وكان حكمه على هذه الفترة من حياته : أنها طفولة سعيدة تبعث على الرضا حتى فى تذكرها ، ويرجع ذلك الى أن والديه كانا يعيشان فى ظروف مريحة ، وأنهما كانا يعيشان لاولادهم أكثر من أى شىء آخر ... (٤) •

أما عن أسرته : فأبوه كان رجلا ظريفا بهيا ، ولم يكن منسجما مع بيئته ، لانه لم يستطع ان يحقق حلم شبابه فى دراسة العلوم Science خاصة علم الطبيعة ، فقنع بالمحاماة ، ورغم نجاحه فيها ، الا أنه لم يستطع ان يلائم نفسه معها تماما ، لانه لم ينس مطلقا أن مهنته الحقيقية قد افلتت منه (٥)• وكان جده لأبيه حاخاما تقيا، ومن أمهر لاعبى الشطرنج

---

(٢) The Road to Mecca, p. 54, 51.ed. Tangier, 1974.

(٣) Op. Cit., p. 51.

(٤) Op. Cit., pp. 51-52.

(٥) PP. 52-53.

فى الاقليم ، الى جانب اهتمامه العميق بالعلوم الرياضية والفلك ، اللذين درسهما فى وقت فراغه خلال حياته ، ومع ذلك فقد رفض السماح لابنه الأكبر ، وهو أبو محمد أسد ، أن يدرس العلوم الطبيعية ، وقرر له منذ البداية دراسة العلوم الدينية الربانية ليصبح حاخاما ، كما هى العادة فى الاسرة ، وربما دفعه الى ذلك ما فعله عم الجد ، وقد كان بدوره حاخاما ، ولكنه ارتد ، وصبأ عن دين أبائه واجداده وتنصر (٦) • ولكن أبا المؤلف لم يرضخ ، فكان يدرس فى الليل سرا من غير أستاذ ، منهاج احدى المدارس الثانوية العلمانية ، الى جانب دراسته الرسمية الدينية فى النهار ، والتحق فيما بعد بالجامعة لدراسة العلوم الفيزيائية ، ولكن الظروف المادية للأسرة لم تمكنه من الاستمرار فى تخصصه ، فاختار مهنة أخرى ، هى المحاماة ، وتزوج من امرأة ، واحدة من أربع بنات لصيرفى ثرى من مدينة لوو ، فى غاليسيا الشرقية ، وفى صيف عام ١٩٠٠، ولد من هذا الزواج محمد أسد ، كواحد من ثلاثة أبناء لابيه وأمه •

وفيما يتعلق بتعليم محمد أسد ، فهو يخبرنا انه كان يجد لذة كبيرة فى قراءة القصص التاريخية المثيرة ثم فى قراءة الشعر والفلسفة ، والآداب البولندية والألمانية ، والتاريخ • ولكنه لم يكن يميل الى العلوم الرياضية والطبيعية التى كانت تجلب له الملل والسأم ، وتشكل خيبة أمل شديدة لوالده ئيه كما كان لا يميل الى قواعد اللاتينية واليونانية ، وكان ذلك سببا فى أنه لم يكن يجتاز الاختبارات الصيفية الا بشق النفس • والى جانب هذه الدراسة العلمانية ، فقد درس محمد أسد كذلك ، وفقا لتقاليد أسرته اليهودية ، العلوم الدينية العبرانية ، وسنرى تفاصيل ذلك بعد فى الفقرة الخاصة باليهودية •

وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى ، هرب محمد أسد من المدرسة، وزور اسمه ليلتحق بالجيش النمسوى ، وظنه رجال الجيش فى الثامنة عشرة من عمره لطوله المفرط ، فقبلوه ، ولكن اباه تتبعه حتى عرف مكانه وأعاده الى فيينا حيث كانت الاسرة قد استقرت • وبعد عامين من انتهاء

(٦) Op. Cit., PP. 52-53.

الحرب ، انصرف محمد أسد الى دراسة تاريخ الفنون والفلسفة فى جامعة فيينا ، ولكنه لم ينصرف اليها قلبيا ، (٧) لأن الاساتذة كانوا مهتمين باكتشاف القوانين الجمالية التى تتحكم فى الخلق الفنى بدلا من الكشف عن دوافعها الصميمة الروحية ، أى أن اهتمامهم كان منصبا على الشكل، دون المضمون والجوهر (٨) وكذلك درس التحليل النفسى لفرويد (علم النفس) ولكن لم ترضه نتائجه ، لانه يفسر كل شىء فى اطار ردود فعل جنسية تناسلية (٩) • وقد كان لديه الوقت الكافى للتأمل فيما حوله من أحوال وظروف تمر بها أوروبا مطلع القرن ، وبعد الحرب العالمية الأولى ، وسنرى تفاصيل هذه التأملات فى فقرات تالية ، ولكن ما رآه وفهمه من هذه الأمور ، ملأه قلقا ، وجعل من العسير عليه متابعة دراسته الجامعية ، فترك الجامعة ، واتجه الى مهنة الصحافة رغم اعتراض والده وغادر فيينا فى يوم من ايام صيف عام ١٩٢٠ ، وأخذ القطار الى براغ ، وبعد فترة شدة أمضاها هناك ، سافر الى برلين حيث لاقى الأمرين فى البحث عن عمل فى صحيفة من الصحف دون جدوى ، واضطر للعمل مع مدير أفلام كمساعد سينمائى ، لمدة شهرين ، ثم العمل مع شخص آخر ، فى كتابة عدة سيناريوهات لافلام سينمائية أخرى (١٠) وبعد سنة من المغامرات فى مدن وسط أوروبا قام خلالها بجميع أنواع الاعمال القصيرة الاجل ، نجح أخيرا فى الدخول الى عالم الصحافة ، وكان ذلك فى خريف عام ١٩٢١ م ، وقد عمل كناقل بالتليفون للاخبار الى صحف المقاطعات ، وظل كذلك الى أن استطاع الحصول على حديث صحفى من مسز مكسيم جوركى ، الأديب الروسى الشهير ، عن طريق مساعدة من صديق له يعمل بوابا بالفندق الذى كانت تقيم به ، ورقى بسبب ذلك الى وظيفة مخبر صحفى ، وصار أخيرا صحفيا (١١) • وقد كان أمامه فى تلك الفترة فرص كثيرة للاطلاع على ما يجرى فى أوروبا والغرب عموما فى العقد

---

(٧) Op. Cit., p. 57.

(٨) P. 58.

(٩) PP. 58-59.

(١٠) PP. 60-62.

(١١) PP. 62-66.

الثالث من القرن العشرين ، وقد تأمل فى ذلك ، وعبر عن هذه التأملات والانظار ، وسنذكرها بعد فى موضعها • وفى نحـو ذلك الوقت اكتشف لاوتسى ، الحكيم الصينى القـديم الشهير ، وقرأ كتـابه فى ترجمته الألمانية ، ولكنه اعتبر فكره حلما من الأحلام ، يدعو الى ابراج عاجية • وفى ربيع عام ١٩٢٢ جاءته دعوة من خاله دوريان ، الشـقيق الأصغر لأمه ، وكان طبيبا نفسانيا ، وكان يرأس فى ذلك الوقت مستشفى للأمراض العقلية فى القدس ، يدعـوه الى المجىء لزيارته فى القدس والاقـامة فترة ، وسيتكفل بنفقاته كلها ذهابا وايابا (١٢) • وقبل محمد أسد الدعوة وبدأ رحلتـه الأولى فى صيف عـام ١٩٢٢ ، ولم يكن يتصـور أبـدا أنها ستصبح نقطة تحول فى حياته ، وكيف ، وهو يصف نفسه فى بداية الرحله بقوله : « ••• لقد كنت شابا أوروبيا ناشئا على الاعتقاد بان الاسلام وكل تعاليمه لم يكن أكثر من طريق فرعى لتاريخ الانسـان ، غير جدير بالاحترام من الناحيتين الروحية والأخلاقية ، وأنه لذلك لم يكن ليوضع فى المنزلة نفسها ، بل لم يكن ليقارن بالدينين اللذين يعتبرهما الغرب جديرين بالنظر اليهما نظرة جدية : النصرانية واليهودية • بهذا الانحراف الأوروبى الغامض ضد الأمور الاسلامية ••• بدأت رحلتى الأولى فى صيف ١٩٢٢ م •• » (١٣) وسـافر عن طريق رومانيا والبحر الأسود مستقلا باخرة الى الاسكندرية ، وعلى ظهر الباخرة ، تحـدث طويلا مع الأب فالكس اليسوعى ، سنرى فحوى هذا الحـديث فيما بعد • وحين وصل الى الاسكندرية ، استقل القطار الى سيناء والقدس ، ومنـذ الوهلة الأولى ، أحس بأنه دخل عالما جـديدا ، من الطبيعـة ، والناس ، فوصف ، وعقب • وفى القدس ، كذلك ، وصف وعقب ، ولكنه رفض الاتجاه الصهيونى منذ البداية (١٤) • وهناك ، كذلك ، فتح له أول باب من أبواب الاسلام ، من خلال حواره مع الحاج معلم الوكالة عن الصلاة الاسلامية (١٥) • وغادر القدس فى زيارة قصيرة الى القاهرة

---

(١٢) Op. Cit., PP. 69-74.

(١٣) P. 75.

(١٤) PP. 90-95.

(١٥) P. 89.

للاحاطة بالموقف السياسى فى الشرق الأوسط باعتباره صحفيا مراسلا لبعض الصحف الأوروبية ، خاصة الالمانية • وهناك فى القاهرة ، شاهد جديدا عن الاسلام والمسلمين (الآذان) فوصـــف وعقب (١٦) وعاد الى القدس ، ثم سافر الى شرق الاردن ، حيث تعرف الى الأمير عبد الله وعلى بلاده ، وشاهد ووصف وعقب (١٧) وعاد بعدها الى القدس ، مرة ثانية ، ومن هناك سافر الى دمشق فى مغامرة خطيرة ، حيث كان قد فقد فى الطريق نقوده وأوراق اثبات شخصيته ، ووصلها فى صيف ١٩٢٣ ، وهناك شاهد المزيد من أمور الاسلام وأحوال المسلمين ، وفتح له ، من جديد ، أبواب أخرى الى الاسلام (١٨) •

وقد عاد بعد ذلك الى أوروبا ثانية فى خريف ١٩٢٣ م • بعد أن استغرقت رحلته الأولى الى الشرق حوالى ثمانية عشر شهرا • وفى طريق عودته مر بتركيا فصوفيا فبلغراد ، فايطاليا ، حيث استقل القطار من تريستا الى فيينا ، وقد حدثت له صـــدمة حضـــارية بمجرد مغـــادرته للشرق ، واستقباله لأوروبا ، فقد كان قد تعود على اخلاق المســـلمين ، وعلى طابع بلاد الاسلام (١٩) • ومن فيينا سافر الى فرانكفـــورت لتقديم نفسه الى ادارة الصحيفة التى كان يراسلها وهو فى الشرق (فرانكفورتر ترايتونج) • ووافـــق رئيس التحـــرير على عودته الى الشـــــرق مرة ثانية ، ولكنه قبل أن يســـافر الى الشرق ، ســـافر الى برلين ، لتوديع أصدقائه ، وهناك قابل السا ، المرأة التى قدر لها أن تصبح زوجته فيما بعـــد (٢٠) • وفى ربيع عام ١٩٢٤ ، بدأ رحلته الثانية الى الشرق ، ومن جديد وصل الى مصر عن طريق بورسعيد ، ومن بورسعيد ركب القطار الى القاهرة ، وفى الطريق وصف كل شىء ، فقد انبهر من جديد بكل شىء ،

---

(١٦) Op. Cit., PP. 108-109.

(١٧) PP. 109-113.

(١٨) PP. 125-129.

(١٩) PP. 136-137.

(٢٠) PP. 137-142.

وفى القطار ، دار حوار بين تاجر يونانى مسيحى ، وعمـدة مصرى أمى مسلم حول قيود الاسلام على زواج المسلمة بغير المسلم (يهودى أو مسيحى) • وقد فتح بهذا الحوار باب جديد الى الاسلام امام محمد أسد، كما حدث له من قبل مع معلم الوكالة فى القدس ، وفى دمشق (٢١) • وفى القاهرة ، حيث أقام ، شاهد احتفالات المصريين بشهر رمضان المعظم ، كما تحدث الى شخصيات دينية وعلمية كبرى ، منهم الإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغى ، وذكر انطباعه عن الأزهر وهو مهم (٢٢) • وخرج من القاهرة فى أوائل صيف عام ١٩٢٤ فى تجوال طويل قدر له أن يستغرق عامين : فزار شرق الاردن للمرة الثانية ، وكذلك سوريا ، ورأى دمشق ثم بيروت ، وطرابلس ، وحلب ، ودير الزور ، ومن هناك الى بغـداد على طريق القوافل القديم المحاذى لنهر الفرات ، وهناك قابل زيد بن غانم وهو رفيق أسفاره بعـد ذلك لمـدة طـويلة حتى عـام ١٩٣٢ (٢٣) • وقد وصف محمد أسد كل شىء فى الطريق ، وفى بغداد ، خـاصة ثورة بغداد على الانجليز عـام ١٩٢٤ (٢٤) •

وسافر بعدها الى ايران وأفغانستان ، وشاهد ، ووصف ، وعقب ، ولكن فى أفغانستان فى طريقه من هراة الى كابول أواخر عام ١٩٢٥ دار حديث هام بينه وبين أحد حكام احـدى المقاطعات الافغـانية ، حيث أخبره الحـاكم أنه مسلم فى داخله ولكنـه لا يعـرف ذلك ، وقد اهتز محمد أسـد من أعماقه لهذه العبارة لمدة طويلة بعد ذلك (٢٥) •

وابتـدأ رحلة العودة الى أوروبا ، من أفغانستان ، أواخر شـتاء ١٩٢٦ م ، فأخذ القطار الى مرو فى تركسـتان الروسية ، فسـمرقند ، فبخارى ، فطشقند ، ثم عبر سهول تركمان الواسعة الى جبال الأورال ،

(٢١) PP. 185-187.
(٢٢) PP. 187-194.
(٢٣) PP. 198-200.
(٢٤) PP. 201-209.
(٢٥) PP. 210 ,296-298.

فموسكو ، وهو لم ينس أن يصف لنا ما شاهده طوال الطريق عبر أراضى روسيا ، خاصة لافتات مهاجمة الاديان على طول الطريق (٢٦) .

وبمجرد عودته تزوج إلسا وشاركته أفكاره واكتشافاته عن الاسلام والمسلمين ، كما شاركته آراءه عن الغرب . والاتجاهات المادية الغربية(٢٧) وبعد قليل اتجه الى صديق هندى مسلم ، وهو رئيس الجالية الاسلامية الصغيرة فى برلين ، وأعلمه برغبته فى اعتناق الاسلام ، فأجرى اجراءات الشهادة ، وقال له : « لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد Leopold وكلمة ليو .Leo اليونانية معناها أسد ، اذن سندعوك من الآن فصاعدا : محمد أسد ... » (٢٨) .

وهكذا تغير اتجاه محمد أسد فى الحياة ، كما تغير مصيره ، وغادر أوروبا هو وزوجته ، بعد ذلك مباشرة ، لأنهما لم يعودا يطيقان البقاء فيها (٢٨) ، فغادراها متجهين الى مكة للحج فى يناير من سنة ١٩٢٧ ، عن طريق الباخرة ، ووصف لنا ما شاهده وتأملاته فى أخوة الاسلام ، ووصف جدة ، ومكة ، ومناسك الحج ، ولكن زوجته السا توفيت فجأة فى مكة ، فحزن حزنا شديدا عليها ، فاعتزل الناس والمجتمع ، وحينئذ لقى الملك عبد العزيز آل سعود وكانت صحبة استمرت حتى عام ١٩٣٢ م وشارك فى الأحداث الكبرى لتوحيد المملكة العربية السعودية ، ووصفها بدقة تامة ، كما شارك فى أحداث المسلمين فى ليبيا ، فى رحلة خاصة خطرة ، بتكليف من الإمام السنوسى ، وقابل عمر المختار ، المجاهد الليبى ضد الاستعمار الايطالى (٢٩) . وقد ترك محمد أسد الجزيرة العربية عام ١٩٣٢ ، وذهب الى الهند فى طريقه الى تركستان الشرقية ، والصين ، وأندونيسيا . ولكن محمد اقبال أقنعه بالغاء برنامجه ، والبقاء بالهند ،

---

(٢٦) PP. 298-300.
(٢٧) PP. 300-310.
(٢٨) P. 311.
(٢٨) P. 311.
(٢٩) P. 16, Passim.

كى يسهم فى اقامة دولة الاسلام فى باكستان ، وقبل محمد أسد ، ووقف نفسه لسنوات عديدة على تحقيق هذا الهدف ، وقام بدراسات كثـــيرة وكتب مقالات عديدة . وألقى العديد من المحاضرات ، وعرف مع الزمن كمترجم للفقه الاسلامى والثقافة الاسلامية • وعندما انشئت باكستان فى عام ١٩٤٧ ، دعته حكومتها الى تنظيم ادارة احياء الاســـلام ، وبعد عامين انتقل الى وزارة الخارجية الباكســـتانية كرئيس لقسم الشرق الاوسط ، ثم كعضو فى وفد باكستان الى الامم المتحدة فى نيويورك (٣٠) وهناك قابله معارفه وأصدقاءه القدامى بنظرات الاستغراب ، لانهم لم يألفوا أن يروا أوروبيا يعيش ويتصرف كمسلم عربى بسيط ، فكان أن كتب سجل حياته وخواطره ، لكى يبين لمن فى الشرق ، ومن فى الغرب : من هو محمد أسد ؟ وترجمة حياته وسيرته الذاتية ، أودعهـــا كتـــابه الشهير : الطريق الى مكة The Road to Mecca ولا يعنينى الفترة التاليـــة فى حياة محمد أســـد لأنها لا تحوى جديدا فى سلوكه وفكره ، لانه سار على نفس الخط المعروف عنه • وربما كان الجديد هو ظهور العديد من مؤلفاته تباعا : (الاسلام على مفترق الطرق) ، (منهـــاج الاسلام فى الحكم) وغير ذلك ، وكلها تبين عمق أنظار محمد أســـد ، وشفافية روحه ، وحسن فهمه عموما لروح الاسلام وخصائصـــه ، كما تبين عمق خبرته بالحضارة الغربية الحديثة ، وهو دائم المقارنة بينها وبين حضارة الاسلام والاسلام •

ولا جدال فى أن محمد أسد قد أثرى الفكر الاســـلامى المعاصر بالعديد من العناصر الفكرية الجديدة • والبحث التالى اسهام بسيط فى القاء بعض الضوء على الخطوط العامة لدوره فى الفكر الاسلامى المعاصر ، عن طريق تتبع أنظـــاره فى الدين عموما ، والديانات الثـــلاث : اليهودية والنصرانية والاسلام بصفة خاصة • ومن المؤكد أن الجانب الدينى يمثل الجانب الرئيسى فى فكر محمد أسد ، ولهذا كان اختيارنا لهذا الجانب فى

---

(٣٠) PP. 1-2.

محاولة للوصول الى دور محمد أســد فى الفكر الاســلامى المعاصر •
فلنتابعه ســويا فيما يلى :

محمد أســد وموقفه من الدين :

ومحمد أسد ، باعتباره يهوديا ، ومن أسرة يهــودية لها تقاليدها الدينية الحاخامية ، كما أشرنا من قبل ، وسنرى تفصيلا بعد — تكونت لديه حساسية مرهفة خاصة بازاء الدين فى سن مبكرة للغاية لا تتجاوز الثالثة عشر • ولقد نماها محمد أســد بسرعة ، بحيث أصــبحت تمثل للمتتبعين لفكره أهم جوانب فكره على الاطلاق • وأولى مظــاهر هذه الحساسية حكمه على طابع تدين والديه : « ••• ذلك أنهما كانا ينتميان الى جيل يخضع باللسان فقط للى هذا أو ذاك من المعتقــدات الدينية التى سبكت حياة أسلافه ، وفى الوقت نفسه لم يسع قط الى أن يعمل فى حياته العــملية ، أو حتى فى تفكــيره الأخـــلاقى ، بمقتضى تلك التعاليم ••• الخ » (٣١) •

وفى زيارته للقاهرة فى رحلته الثانية ربيع ١٩٢٤ ، وحــديثه مع الشيخ المراغى ، عن ضرورة وجود الدين النظامى ، فأجابه الشــيخ : بأن عددا قليــلا جدا من الناس — باستثناء الانبياء — قادرون على أن يفهموا الصوت الداخلى الذى يتكلم فى ذواتهم ، فمعظم الناس مقيدون بالمصالح الشخصية والرغبات الفردية ، ولو ترك لكل فرد تتبع ما يمليه عليه فؤاده فحسب لسادت الفوضى الأخلاقية ســيادة تامة ، ولما كان هناك اتفاق قط على أى طريقة من طرق السلوك ، وهناك شــذوذ لهذه القاعدة واستثناءات ، ولكن هذا يفتح ابباب لكثير من المدعين يطالبون بهذا الحق لانفســهم ، والنتيجة من جــديد ، هى الفوضى : فلابد من وجود دين نظامى (٣٢) • واقتنع محمد أسد بهذا الجواب البسيط •

---

(٣١) P. 55

(٣٢) PP. 193- 194.

وفى شبه الجزيرة العربية ، فى رحلته عبر صحراء النفود ، وقف يتأمل الصحراء وروعتها ، ودورها فى تهذيب شخصية الانسان « ••• ان الصحراء بخشونتها وعريها ، تجرد رغبتنا فى أن نفهم الحياة ، من كل الخداع والمراوغات ، من كل الأوهام والأضاليل المتعددة المتشعبة، التى يمكن با لطبيعة أكثر سخاء وجودا أن تخلب عقل الانسان ، وتجعله يسلط تخيلاته الخاصة على العالم من حوله • ان الصحراء عارية نظيفة ، لا تقبل انصاف الحلول • انها تجرف من قلب الانسان كل النزوات ، والأوهام المحببة ، التى يمكن أن تستعمل كقناع للتفكير الراغب ، وهكذا تجعله حرا لكى يسلم نفسه الى (كلى) مجرد لا صورة له : أبعد من كل ما هو بعيد ، ومع ذلك فهو أقرب من كل ما هو قريب •• » (٣٣) • وهذا التحليل الجميل لفاعلية الصحراء فى تقويم سلوك الانسان وتهذيبه ، جعل محمد أسد يتخذه تبريرا ، من وجهة نظره ، لنزول الأديان السماوية فى الصحراء « ••• فمن عليقة شوك مشتعلة فى صحراء مدين ، دوى صوت الله الى موسى • وفى قفر صحراء فلسطينية تلقى المسيح رسالة (مملكة الله) •. وفى غار حراء ، فى التلال الصحراوية قرب مكة نودى لأول مرة على محمد العربى ••• » (٣٤) • وهذا التبرير الجغرافى لبيئة نزول وحى الأديان السماوية الثلاثة ، لا شك ، يعتبر جديدا بكل المقاييس •

وفى مطلع كتابه (الاسلام على مفترق الطرق) يحدثنا عن الاتجاه الدينى فى الانسان • وهو يرى: أن الانسان لا يستطيع أن يكشف لنفسه غوامض الحياة . ولا سر الولادة والموت ، ولا سر اللانهاية والأبد فتفكيره يقصر عن فهم ذلك ، ومن ثم أمامه طريقان : أولهما : أن يتحاشى كل محاولة لفهم الحياة بمجموعها، وهنا يعتمد الانسان على قرائن الاختبار الظاهرة وحدها ، فيصبح قادرا على فهم نتف متفرقة من

---

(٣٣) PP. 144-145.

(٣٤) P. 145.

الحياة ، تزداد فى عددها ووضوحها مع ازدياد معرفة الانســان بعالم الطبيعة ، ولكن فهمه يبقى عند حدود هذه النتف لا يتجاوزها لقصوره عن فهم المجموع •

ثانيهما : هو ســبيل الدين ، عن طريق الاختبار الوجــدانى ، أو بالحدس ، لقبول تفسير الحياة تفسيرا شاملا ، مبنيا على الافتراض بأن ثمة قوة مبدعة سامية تدبر هذا العالم على أمر قد قدر ، ولكن الاحاطة به وراء طاقة الفهم البشرى ••• ولا يعنى ذلك أن يمتنع الانســان عن البحث فى حقائق الحياة وأجزائهــا ، حينما تكشف هذه نفســها للنظر الظاهر ، فليس ثمة عداوة أصــيلة بين الرأى الظــاهر (العلمى) وبين الرأى الوجدانى (الدينى) • ولكن الثــانى فى الحقيقة هو الاحتمــال الوحيد فى النظر العقلى لادراك الحياة كلها على أنها وحدة فى جوهرها ، وفى قوتها المحركة ، وعلى أنها مجموع متزن منســجم ••• ان الرجل المتدين يعلم أن كل ما يصيبه ، أو يحدث فى نفسه ، لا يمكن أن يكون خبط عشواء ، لا وعى فيه ، ولا حكمة منه • هو يعتقد انه نتيجة لارادة الله الواعية وحدها ، وأنه هو نفسه جزء حى من هذا المنهاج العالمى • وهكذا قدر للانسان أن يحل هذا الخلاف المرير بين (الذات) الانسانية ، وبين العالم الواقعى ، المتكون من الحقائق والمظاهر التى تسمى الطبيعة » (٣٥)

ويعتبر محمد أســد أن هذه هى وظيفة الاديان الكبرى كلهــا • ولكنه يعتقد أن الاسلام من بينها كلها ، يتخطى التعليل النظرى والنصح الى بيان الطريقة العملية لذلك « ••• هذا الوضــع الأســاسى عام فى الأديان الكبرى كلها ، مهما اختلفت اسماؤها ، وكذلك يعم فيها الحث على أن يسلم الإنسان نفسه الى إرادة الله المتجلية • على أن الاســلام ، والاسلام وحده ، يتخطى هذا التعليل النظرى ، والنصح ••• ولكنه يدلنا أيضا على الطريقة العملية التى يستطيع بها كل فرد — فى نطــاق

---

(٣٥) الاسلام على مفترق الطرق ، ص ١٩ — ٢١ ، ط بيروت ١٩٧٤ م • ترجمة د • عمر فروخ •

حياته الدنيوية — أن يعيد وحدة الفكر والعمل فى وجوده ووعيه كليهما ‥ » (٣٦) ٠

وهذا الفهم الجيد من محمد أسد ، لدور الدين فى حياة الانسان والبشرية ، ولمحته الدقيقة عن دور الاسلام من بين كل الاديان ، يجعلنا نتطلع الى معرفة رأيه بالتفصيل فى الديانات السماوية الثلاث ، وموقفه من كل منها ، بالاضافة الى رأيه فى الغرب ، وهو قرين رأيه فى النصرانية ، فلنتابع سويا الفقرات التالية :

محمد أسد وموقفه من اليهودية :

لقد كان على محمد أسد — بمقتضى تقاليده الأسرية — أن يدرس على أيدى أساتذة خصوصيين العلوم الدينية العبرانية بتعمق كبير ، وهكذا وجد نفسه ، فى سن مبكرة ، لا تتجاوز الثالثة عشرة يجيد قراءة العبرانية بسهولة ، والتحدث بها بطلاقة تامة ، الى جانب معرفته بالآرامية ، وقد ساعده ذلك فيما بعد على سرعة وسهولة تعلم اللغة العربية ٠ ولقد درس العهد القديم فى نصه الأصلى ، وكذلك المشنا Mishna والجمارا GeMara أى نص التلمود وشروحه ، بحيث أصبحا مألوفين لديه ٠ وكان بوسعه أن يناقش بثقة تامة بالنفس الفروق بين تلمود بابل وتلمود القدس وانهمك فى درس شروح الكتاب المقدس ، والملقبة باسم تارجوم Targum تماما كما لو كان مقدرا عليه أن يصبح حاخاما ٠ وكان أبوه يلح عليه فى قضاء الساعات الطوال فى درس الكتب المقدسة ٠ (٣٧) ٠

وهذه المعرفة المبكرة العميقة للتراث اليهودى الدينى مكنته من ادراك الكثير من جوانب الخلل والقصور والتحريف فى المعتقد اليهودى : ‥ فقد لاحظ « ‥ ان الله ، كما يمثله العهد القديم والتلمود ، كان مهتما

---

(٣٦) نفسه ، ص ٢١ ٠

(٣٧) P. 55.

بأكثر مما ينبغي بالطقوس التي كـان مفروضا في عباده أن يعبـدوه بواسطتها » (٣٨) • كما لاحظ « أن هذا الإله كان منشغل البال ، بصورة غريبة ، بمصائر أمة واحدة معينة ، أعني العبرانيين • إن تكوين العهد القديم نفسه كتاريخ لأحفـاد ابراهيم كان يميل الى أن يجعـل الله يبدو لا كخالق الناس أجمعين وربهم ، ولكن كإله قبلي يكيف الخلق كله حسب حاجات شعب مختار : يكـافئهم بالفتوح اذا كانوا صـالحين ، ويعذبهم على أيدي غير المؤمنين كلما انحرفوا عن الطريق المفروض عليهم سلوكه • وعلى ضوء أوجه القصور هذه بدت الحمية الاخلاقية للانبياء المتأخرين ، مثل أشعيا وارميا ، خالية من رسالة عالمية •• » (٣٩) •

محمد أسد ، إذن ، يأخذ على التراث اليهـودي الديني ، في أول مواجهة بينهما ، تضخم الطقوس والشعائر التعبدية فيه ، كما يأخذ عليه جعله من الله ، خالق الناس أجمعين وربهم ، الها قبليا لا يهتم الا بمصالح شعب قبيلته المختارة ، على حساب بقية الخـلق ، بحيث أن الحمـاس الاخلاقي للانبياء المتأخرين لم يفلح في أن يجعل من ذلك رسالة عالمية •

وعلى الرغم من أن نتائج تلك الدراسات الدينية المبكرة كانت على عكس ما قصد بها • حيث أنها أبعدت محمد أسد عن دين أبائه واجداده ، بدلا من أن تقربه منه ، الا أنه يرى أنها سـاعدته فيما بعد على فهـم الغرض الأساسي للدين ، بما هو دين ، مهما كان شكله •

وعلينا أن نضيف الى ذلك ، انها ساعدته كذلك ، فيما بعد ، على التأكد من فساد ادعاءات اليهود الصـهاينة بالحقوق التاريخية في أرض فلسطين ، واغتصابهم لها ، الى جانب تمكنه كذلك بسهولة من التعرف على العديد من المواقع الطبوغرافية وتشابه الاشخاص وفقا لنصوص الاحداث التاريخية التي وردت في أسفار العهد القديم ، وأخيرا الرد على

---

(٣٨) P. 55.

(٣٩) PP55-56.

ادعاء المدعين من المستشرقين اليهود ، وغيرهم من الغــربيين ، الذين زعموا أن الرســـول ﷺ نقل عن اليهودية •

وبسبب خيبة أمله فى اليهودية ، الى جانب تأثره ببيئته التى كانت تعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الالهى ، لم يهتم فى هــذه الفترة بالبحث عن الحقائق الروحية فى جهات أخرى ، بل لقد نبذ عمليا كل دين نظامى تأسيسى • ولما كانت المسائل الفلسفة والدينيــة لم تشد انتباهه بعد ، وكانت اليهودية لا تعنى بالنسبة اليه أكثر من سلسلة من الانظمة المقيدة ، فانه لم يشعر بأى أسى من جراء انحرافه بعيدا عنها ، ومشاركته لمعظم الصبية الآخرين من لداته فى تطلعــاتهم نحو العمــل والمغــامرة والاثارة (٤٠) •

وعلينا أن ننتظر بعد ذلك ، حوالى تسع سنوات ، أى خريف عام ١٩٢٢ ، حتى تحين له فرصة قبول دعوة خاله « دوريان » لزيارة القدس والاقامة معه فيها حيث كان يقيم ، وهناك كان يشاهد من ســطح الدار المدينة القديمة — القدس — ويتأمل فى ذكرياتها التاريخية التى تنبعث من كل زاوية من زواياها فى سلسلة من أحــلام اليقظة : فهذه الشــوارع أصغت الى موعظة أشعيا ، وهذه الاحجار مشى عليها المسيح •• الخ (٤١)

ومحمد أسد لا يتركنا ننتظر طويلا كى يعرفنا برأيه فى الأحــداث الدائرة فى فلسطين آنذاك وما يدبره رجال الصهيونية لاغتصاب فلسطين ، ففى سياق وصفه لمدينة القدس وسكانها نراه يقول : « •• وكان الناس يمتلئون بالحركة التلقائية ونبل الاشارة ، الناس — أى العرب : ذلك أنهم هم الذين أوحوا الى منذ الوهلة الأولى أنهم أصحاب الأرض ، أصحابها الذين نشأوا من ترابها وتاريخها وكانوا جزءا لا يتجزأ من الهواء الذى يحيط بهاء كانت ثيابهم متعددةالألوان ومن أقمشة ذات سمة توراتية تماما of a biblical Sweep of drapery (٤٢) • وهو يؤكد هذه الفكرة فى

---

(٤٠) P. 56.

(٤١) P. 90 and FF.

(٤٢) Op. Cit., Loc. Cit.

موضع آخر بالتعليق على مشاهدته لبدوى عربى كان ينتظر بعض رفاقه أمام الجسر المقنطر القريب من بيت خاله دوريان ، وأوحى منظـــر ذلك البدوى لمحمد أسد بفكرة خيالية أعادت الى ذهنه قصة المحـــاربين من أصحاب داود الشاب الذين صحبوه أثناء هربه من الحسد الاسود لملكه شـــــاول Saul . لعل هذا البدوى واحدا منهم جاء خلسة مع رفيق له الى مدينة الملك ليقف على شعور شاول نحو داود ، وهو الان ينتظر هنا مجىء رفيقه .. الخ ما ورد فى العهد القديم حول ذلك . وهنا يعقب محمد أسد بقوله :

« هذا الرجل هو عربى فى حين أن أولئك القوم الآخرين ، الذين جاء ذكرهم فى التوراة ، كانوا عبرانيين : ولكن دهشى لم يدم الا لحظـــة واحدة ، ذلك أنى عرفت حالا ، بذلك الوضوح الذى يلتمع فينا أحـــيانا كالبرق ، ويضىء العالم كله مدة لا تتجاوز نبضة القلب . ان داود وزمن داود ، مثل ابراهيم وزمن ابراهيم ، كانا أقرب الى جذورهما العربية ، وكـــذلك الى بدو اليوم ، من يهودى اليـــوم الذى يدعى أنه منحـــدر منهمـــا .. » (٤٣) .

وهذا الحكم الشجاع له أهمية خطيرة خاصة اذا كان صـــاحبه يهوديا ، على الأقل فى هذه اللحظة وقد استمر محمد أسد فى تأملاته وهو فى القدس ، وأدرك على التحـــقيق « ... أن المدن كانت أيضـــا مليئة بالعرب ، وأنه ، فى الحق ، كان فى فلسطين فى ذلك العـــام — ١٩٢٢ — خمسة من العرب مقابل كل يهودى واحد . وان فلسطين ، بالتالى ، كانت بلدا عربيا أكثر منه يهوديا الى درجة بعيدة جدا (٤٤) » . وقد أدرك محمد أسد كذلك أن المسألة ليست فحسب مسألة جذور عرقية ، أو مســـألة نسب احصائية سكانية ؛ وانما هى الى جانب ذلك ، مشكلة حضـــارية واستقرار اجتماعى .. « لقد شعرت منذ البداية ان فكرة الوطن القومى

---

(٤٣) P. 91.

(٤٤) P. 92.

اليهودى فى فلسطين فكرة مصطنعة من أساسها ، وانها — هذا ما كان أدهى وأمر — كانت تهدد بنقل جميع مشاكل الحياة الأوروبية وتعقيداتها غير القابلة للحل الى بلد كان يمكن أن ينعم بقدر أكبر من السعادة دونها • ان اليهود لم يكونوا فى الحق يأتون الى فلسطين كما يعود المرء الى وطنه ، ولكنهم كانوا مصممين على قلبها وطنا يهوديا على النمط الأوروبى ، وذا أهداف أوروبية • وفى ايجاز ، كانوا أغرابا داخل الاسوار • وهكذا فاننى لم أجد أيما خطأ فى عزم العرب على مقاومة فكرة الوطن اليهودى فى صميم بلادهم بل على العكس ، أدركت أن العرب هم الذين كانوا يخدعون ، وأنهم كانوا على حق فى دفاعهم عن أنفسهم ضد هذه الخديعة ••• » (٤٥) وقد رفض محمد أسد مدلول تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، ورأى فيه مناورة سياسية ظالمة لا يقصد به أكثر من تطبيق المبدأ الاستعمارى المشترك القديم « فرق تسد » • ولم يتوقف نشاط محمد أسد فى هذا المجال عند حدود الحوار الذاتى بينه وبين نفسه ، والاستبطان الشخصى • ولكنه تعداه الى مناقشة أقطاب النشاط الصهيونى فى فلسطين فى ذلك الوقت ، فتحدث بوجهة نظره الى السيد أوسيشكين Mr. Ussyshkin وهو رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية ، الذى لم يظهر سوى الازدراء بالعرب (٤٦) •

أما قمة هذه المواقف كلها ، فهى بلا جدال حوار محمد أسد مع الدكتور حاييم وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية بلا منازع ، اثناء احدى زياراته الدورية الى فلسطين ، وقد التقيا فى بيت أحد الأصدقاء اليهود ، وكان وايزمان يتحدث عن المصاعب المالية التى كانت تكتنف حلم الوطن القومى اليهودى ، وعن الاستجابة غير الكافية لهذا الحلم فى الخارج ، وهنا تدخل محمد أسد فى الحديث ، وعرض وجهة نظره فى الموقف ، من حيث أن العرب يشكلون الأكثرية العددية فى فلسطين

---

(٤٥) P. 93.

(٤٦) PP. 92-93.

وما يستتبعه ذلك من مقاومة عنيفة للمشروع • وأجــاب وايزمان بأنهم يتوقعون أن لا يعود العرب أكثرية بعد بضع سنوات (٤٧) ، وهنا لفت محمد أسد نظر وايزمان الى نقطة جديدة وهى الجانب الأخلاقى والأدبى من المشكلة قائلا :

« ••• ألا تزعجك الناحية الأخلاقية والأدبية من المشــكلة أبدا ؟ ألا تعتقد أنه من الجور والظلم من ناحيتكم أن تحلوا محل الناس الذين عاشوا دائما فى هذه البلاد ؟ » فأجاب وايزمان : « ولكنها بلادنا ، اننا لا نفعل شيئا أكثر من استعادة ما انتزع منا ظلما » فيجيب محمد أسد : « ولكنكم كنتم ولا تزالون بعيدين عن فلسطين قرابة ألفين من السنين • وقبل ذلك حــكمتم هذه البــلاد ، ولكنكم لم تحــكموها كلها أقــل من خمسمائة عام • ألا تعتقد أن العرب باســتطاعتهم على هذا الأساس نفسه ، أن يطالبوا لأنفسهم بأســبانيا ، لانهم على كل حال حكموا فى أسبانيا سبعمائة سنة تقريبا ، ولم يفقدوها بالكلية الا منذ خمســمائة سنة ؟ » • فقال وايزمان : « هراء : ان العرب لم يستولوا على أسبانيا الا عن طريق الفتح • انها لم تكن وطنهم الأصلى قط • وهكذا فان العدل قضى فى النهاية بخروجهم على أيدى الاسبان » • وهنا يستجمع محمد أسد ذاكرته ، ورصيد دراساته للعلوم الدينية العبرانية فيجيب بحجج تاريخية صحيحة قــائلا : « عفوك ، ولكن يخيل الى أن هنـــاك مغالطة تاريخية • ان العبرانيين أيضا جاءوا الى فلسطين فاتحين • وقبلهم بزمن طويل كان كثير من القبائل السامية وغير السامية الاخرى مستقرا هنا — العموريون والأدوميون والفلســطينيون والمؤابيون والحيثيون ، وتلك القبائل ظلت تعيش هنا حتى فى أيام مملكتى اسرائيل ويهوذا ، وظلت أيضا تعيش هنا بعد أن طرد الرومان أجدادنا ، وهى تعيش هنا اليوم • ان العرب الذين استقروا فى سوريا وفلســطين بعد فتحهما فى القرن السابع كانوا دائما أقلية صغيرة ، أما الباقون الذين نطلق عليهم اليوم اسم

---

(٤٧) P. 95.

(العرب الفلسطينيين) أو (العرب السوريين) فانهم ليسوا فى الحقيقة سوى سكان البلاد الأصليين وقد تعربوا ، بعضهم أصبحوا مسلمين خلال قرون ، على حين بقى الآخرون منهم مسيحيين • وكان طبيعيا أن يتزاوج المسلمون واخوانهم فى الدين من الجزيرة العربية • ولكن هل تستطيع أن تنكر جملة هؤلاء القوم فى فلسطين ، الذين يتكلمون العربية ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ، قد تحدروا مباشرة من السكان الأصليين : أصليين من حيث أنهم عاشوا فى هذه البلاد قبل أن يجىء اليها العبرانيون بقرون ؟ » (٤٨) ومن الطبيعى أن يبتسم وايزمان ساخرا من هذه الحجج ، ويوجه الحديث نحو موضوعات أخرى • وكان هدف محمد أسد من دفاعه عن القضية — كما ذكر — هو أن يسبب ذلك نوعا من القلق وانشغال الفكر لدى القيادة الصهيونية ، قلق قد يؤدى الى دور أكبر من التأمل الباطنى ، ولربما بالتالى الى استعداد أكبر للاعتراف بوجود حق أدبى ممكن فى المقاومة العربية ، ولكن أيا من ذلك لم يحدث ، ولن يحدث ، لان اليهود قد تجاهلوا الحقوق العينية للشعب الفلسطينى ، فمن غير المعقول أن يضعوا فى اعتبارهم الحقوق الأدبية له • ولقد تساءل محمد أسد فى دهشة : « أليس غريبا جدا أن تكون أمة عانت ضروبا من الجور عبر تاريخها الطويل من الشتات المؤلم ، على استعداد الآن لتحقيق هدفها الأوحد : وهو انزال الظلم الفادح بأمة أخرى ، أمة كانت بريئة من كل آلام اليهود الماضية • لقد عرفت أن مثل هذه الظاهرة لم تكن غريبة على التاريخ ، ولكنها جعلتنى ، مع ذلك ، حزينا للغاية أن أراها تحدث أمام عينى » (٤٩) •

ومحمد أسد يرى أن النجاح المؤقت لليهود لا يمكن أن يستمر ، وانهم ما لم يتعايشوا فى تعاون ودى مع العرب ، فان مستقبلا مؤلما مملوءا بالمنازعات والاحقاد والضغائن سينتج عن سياستهم تلك ، وستغرق الجزيرة اليهودية وسط ذلك البحر العربى المعادى (٤٩) •

---

(٤٨) P. 95.

(٤٩) P. 92.

والآن إذا ما تأملنا آراء محمد أسد هذه التى عرضها ، منذ حوالى خمس وستون عاما ، فسنجد ان كثيرا من المفكرين العرب ، المدافعين عن القضية الفلسطينية ، قد أخذوا بمعظمها ، واستفادوا بها فى عرض موضوع النزاع العربى — الاسرائيلى .

ومهما يكن من أمر ، فان موقف محمد أسد المبكر ، والصريح ، قبل اعتناقه الاسلام ، من قضية النزاع العربى الاسرائيلى ، ليثبت نقاء هذا الرجل ، ونفاذ بصيرته ، ورجاحة عقله وصدق دخيلته ، وهى ملكات شخصية كانت فى خلفية اتجاهه للاسلام فيما بعد ، واعتناقه له . بل لقد ذهب أحد الكتاب المعاصرين الى جعل موقف محمد أسد من اسرائيل هو المحك الذى يكشف عن صدقه وموقفه ، فيقول : « .. وهو — أى محمد أسد — كيهودى يمكن الحكم عليه من موقفه من اسرائيل . وقد رأينا أن لورنس وفيلبى ، وكل الذين (تعربوا) فى تلك السنوات ، بل وحتى أشهروا اسلامهم ، كان المحك الذى يكشف موقفهم هو تأييدهم لاسرائيل ، إلا (محمد أسد) ، فقد رفض اسرائيل جملة وتفصيلا » (٥٠)

وحينما أسلم محمد أسد ، بعد خمس سنوات تقريبا من هذه الاحداث ، لم ينس كذلك رصيده من التراث العبرانى ، فاستخدمه ، وان كان هذه المرة دفاعا عن الاسلام ، وعن نبى الاسلام :

« ... إبراهيم وكبشه السماوى ، مثل هذه الصورة تخطر بالبال بسهولة فى هذه البلاد ، وانه لمن الجدير بالملاحظة والاعتبار كيف ان ذكرى ذلك الشيخ الجليل لا تزال حية قوية عند العرب باكثر منها عند المسيحيين فى الغرب ، الذين يقيمون تخيلهم الدينى فى الدرجة الأولى على العهد القديم ، وحتى عند اليهود أنفسهم ، الذين يشكل العهد القديم فى نظرهم بدء كلمة الله الى الانسان ونهايتها ان المرء ليحس

---

(٥٠) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامى ، ص ٧٤١ . ط واشنطن ، د . ت .

دائما بوجود ابراهيم روحيا ، فى بلاد العرب وفى جميع أقطار العالم الاسلامى .. لا فى كثرة ما يردد اسمه على مسامع صغار المسلمين فحسب ، بل أيضا فى الذكرى المتكررة فى القرآن وفى صلوات المسلمين اليومية ، للدور الذى لعبه ذلك الشيخ الجليل كأول داع واع بوحدانية الله : الأمر الذى يفسر كذلك الأهمية العظمى التى يعطيها الاسلام للحج السنوى الى مكة ، الذى لا يزال منذ قديم الزمن وطيد الصلة بقصة إبراهيم . ان محمدا لم يدخل إبراهيم — كما يعتقد الكثيرون من الغربيين خطا — فى مدار التفكير العربى فى محاولة منه لاستعارة عناصر ذات صبغة دينية من اليهودية . ذلك انه من الثابت تاريخيا أن شخصية ابراهيم كانت معروفة من قبل الاسلام بزمن طويل ، كما أن جميع الاشارات الواردة فى القرآن عن ابراهيم مصوغة بحيث لا يبقى مجال للشك فى أنه كان راسخا فى أذهان العرب قبل عهد النبى بعصور عديدة ... والعهد القديم لا يأتى على ذكر القسم الأول من قصة اسماعيل وأمه ، ذلك أن تطوراتها فيما بعد لا علاقة مباشرة لها بمصائر الأمة اليهودية التى خصص لها العهد القديم كله تقريبا ... » (٥١)

وهكذا يتصدى محمد أسد لادعاءات ومزاعم الزاعمين شرقا وغربا ، ويجلى صفحة التراث الاسلامى من فرية النقل عن الديانات الأخرى . وسنرى تباعا مزيدا من وضوح رؤية محمد أسد وشجاعته وصلابته الفكرية ، واخلاصه فى الدفاع عن الاسلام والمسلمين . ولكننا لابد أن نشير هنا إلى أن محمد أسد برفضه لليهودية ، قبل إسلامه فانما كان

---

(٥١) PP. 353-54. والنص طويل للغاية نجتزىء منه بما ذكر حاليا وعلى القارىء الرجوع للاصل وقراءته كاملا . وانظر كذلك مقارنته بين ردود فعل الرسول عليه الصلاة والسلام حين جاءه الوحى ، ومقارنته ذلك بردود فعل النبى يعقوب عليه السلام ، وفقا لرواية التوراة . CF. Op. Ci., p 288.

وانظر كذلك ، فى نفس الموضع السابق ، مقارنته بين سيدنا موسى ، عليه السلام ، حين وقف أمام نار الشجرة ، وكلمه الوحى ، وظن نفسه غير أهل لتلك المهمة ، بنفس موقف رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام .

يتخطى أكبر عقبة فكرية وروحية تعـوقه فى طـريقه للبحث عن الذات والسـعى وراء الحقيقة ، وما دام باب اليهوديـة قـد أغلق وراءه ، فمازال باب الغرب والنصرانية مفتوحا • فلنر سـويا كيف سيتناولهما وكيف سينغلقان بدورهما ، ليتهيأ محمد أسـد بعد ذلك تماما ، لفتح ، لا لغلق ، أبواب جديدة ، هى أبواب الإسـلام •

محمد أسد وموقفه من النصرانية والغرب :

لقـد ورد عنوان الفقرة الحالية على النحـو المذكور ، لأنهما — أى النصرانية والغرب — يتشابكان فى كتابات محمد أسد ، وقد تناولهما فى كتـابين من أهم كتبه ، أولهما : ترجمته الذاتية (الطـريق إلى مكة The Road to Mecca) حيث عايشـهما قبل إسلامه ، وخبرهما بنفسه ، كواحد من أبناء الغرب ، من جيل مطلع القرن العشرين ، الى ما بعـد الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريبا •

ثانيهما : أول مؤلفاته الفكرية الفذة ، بعد إسـلامه ، وربما أعظم مؤلفـاته كلها على الإطلاق ، وهو (الإسـلام على مفترق الطرق) • فلنتابعه سويا عن قرب لنرى أنظاره المعميقة حولهما :

فى المرحلة الأولى ، مرحلة المعايشـة والبحث عن الذات ، نراه يتحدث عن حيرة جيله من الشباب والفراغ الروحى الذى كان يعانيه ، وضياع جميع القيم الأخلاقية والروحية التى ألفتها أوروبا لعدة قرون سابقة ، كنتيجة مباشرة لفظائع الحرب العالمية الأولى • ولم يكن هناك فى الافق ما يدل على ظهور مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها ، كما لم يكن بوسع أحد أن يقدم لهذا الشباب الضائع أجوبة مرضية عن كثير من الأسـئلة التى كانت تحيره • وفشل العـلم والدين ومذاهب الاصلاح فى القيام بهذا الدور ، فى تلك المرحلة ، لأن العلم كان مجـرد معرفة دونما هدف أخلاقى ، أما الدين فقد تحول الى مرآة تعكس عادات رجال الدين التقليديين الخاصة فى التفكير ، وهى عادات أصابها الجمود والخلل منذ أمد بعيد ، أما المذاهب الاصلاحية فقد انصرفت الى الإهتمام

بما يحيط بالمشاكل من ظروف خارجية وليس بالمشاكل نفسها ، ويعبر محمد أسد عن ذلك فيقول : « ... كان العلم يقول (المعرفة هى كل شىء) ونسى أن المعرفة دون هدف أخلاقى لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الفوضى والغموض . أن المصلحين الاجتماعيين ، والثوريين ، والشيوعيين — وجميعهم دن شك ، كانوا يريدون بناء عالم أفضل وأسعد — لم يكونوا يفكرون إلا بمقتضى ظروف خارجية ، اجتماعية واقتصادية ، ولكى يعرضوا هذا القصور ، فقد رفعوا شعارهم الخاص ، بـ (المفهوم المادى للتاريخ) الى نوع جديد من الميتافيزيقا المناقضة للميتافيزيقا .. ومن ناحية أخرى ، فان رجال الدين التقليديين لم يعرفوا شيئا أفضل من أن يعزوا الى آلهتهم صفات مقتبسة من عاداتهم الخاصة فى التفكير ، تلك العادات التى كانت قد أصبحت جامدة لا معنى لها منذ زمن طويل . وعندما رأينا نحن الشباب أن هذه الصفات الإلهية المزعومة كثيرا ما كانت تتناقض الى أبعد الحدود مع ما كان يجرى فى العالم من حولنا ، كنا نقول لانفسنا : (ان القوى الدافعة للقضاء والقدر تختلف بصورة جليلة واضحة عن الصفات المعزوة الى الله ، واذن ، فان الله غير موجود) . ولم يخطر الا لعدد قليل جدا منا ، أن السبب فى كل هذه الفوضى والاختلاط ، قد يكون مرده الى استبداد حماة الدين ، الذين يزعمون أنهم هم الصالحون . والذين كانوا يزعمون أن من حقهم أن (يعرفوا) الله ، والذين بإلباسهم إياه ثيابهم الخاصة ، قد فصلوه عن الإنسان ومصيره . هذا التحول الأخلاقى فى الفرد كان يمكن أن يؤدى : اما إلى الفوضى الأخلاقية الكاملة والشك ، واما الى ايجاد ملتمس شخصى خلاق لما يمكن أن يحقق الحياة الطيبة » . (٥٢)

واذن ، فثمرة العلم والمعرفة الأوروبية ، فى تلك المرحلة ، هى الفوضى والغموض ، لانها معرفة يعوزها الهدف الأخلاقى . أما ثمرة جهود المصلحين من التيارات المختلفة فلا تتعدى — من حيث الشكل —

---

(٥٢) P. 57-58.

القشرة الخارجية ، ولا تصل إلى صميم المشكلات ، كما لا تتجاوز — من حيث المضمون — الشعارات الجوفاء المغرقة فى الغموض والمتناقضات « •• ميتافيزيقا مناقضة للميتافيزيقا •• » على حين أن ثمرة عمل الدين وقتذاك هو الفوضى الأخلاقية الكاملة واللا أدرية أو السعى الشخصى نحو اقتناص متع الحياة ، وذلك كله بسبب قصور رجال الدين ، وتشكيلهم لقيم الدين ومبادئه على هواهم ، فابتعد الناس عنه ، ونفروا منه وهذه نتائج خطيرة للغاية ، ولكنها صحيحة وواقعية ، وقد أخذ بها محمد أسد نفسه فى هذه الفترة ، فعاش حياة الفوضى الأخلاقية ، والشك واللاأدرية، كما نشط فى اقتناص متع الحياة المادية • فهو يتحدث فى موضع عن زوال كثير من الحواجز بين الجنسين إبان العملية العامة لانحلال المقاييس الأخلاقية الثابتة بعد الحرب العالمية الأولى ، وهو يقول : « وانى اذ أعود بالذاكرة الى السنوات الأولى التى أعقبت الحرب ، أشعر بأن الشباب والشابات الذين تكلموا وكتبوا بمثل ذلك الاندفاع الكبير عن (حرية الجسد) كانوا فى الحق بعيدين جدا عن الطهر اليونانى القديم ، الذى كثيرا ما ادعوه ، وكانت علاقاتهم الجنسية عموما علاقات عابرة ، وكان يشوبها نوع من اللامبالاة الواقعية كان يؤدى فى معظم الأحيان الى العبث • وحتى لو شعرت بنفسى مقيدا ببقايا الفضيلة التقليدية ، فقد كان من الصعب على جدا أن أتفادى الإنجراف فى التيار الذى كان قد بدأ يجرف الكثيرين • وقد كنت أفخر ، كآخرين كثيرين من أترابى ، بما كان يعتبر (ثورة على التقاليد الجوفاء) • كانت المغازلات تنقلب إلى قضايا غرام ، وبعض هذه القضايا الى انفعالات وتأثرات نفسانية مؤلمة • بيد أننى لا أعتقد أننى كنت خليعا أو فاسقا •• » ••• (٥٣) واعتقاده بأنه لم يكن خليعا أو فاسقا يرجع فى جانب كبير منه إلى أنه كان يساير جيله من الشباب ، وهو سبب غير كاف • وفى موضع آخر يتحدث عن السنوات الغريبة التى ألفت العقد الثالث من هذا القرن ، فى أوروبا الوسطى ، وما ساد فيها من جو عام من الخطر الاجتماعى

---

(٥٣) P. 59.

والأدبى مع فراغ روحى شــديد •• أن اله ذلك العالم لم يعــد من نوع روحى وانما كان هو الرخاء •• ان الأوروبى العــادى كان يعرف دينــا ايجابيا واحــدا : هو عبــادة التقــدم المادى ، والاعتقــاد بأنه لا يمكن أن يكون فى الحيــاة هــدف آخــر ســوى جعــل تلك الحياة نفسها أكثر سهولة ويسر •• أما معابد هذا الدين فهى المصــانع الجبارة ، والمختبرات الكيميائية ، والمشاريع المائية والكهربائية ، ودور العرض الســينمائية ، وقاعــات الرقص • أما كهــانه فهم الصرافون والمهندسون والسياسيون ونجوم السينما وزعماء الصناعة •• وكانت هناك خيبة روحية تتجلى فى الفقدان الشامل للاتفاق على معنى الخــير والشر ، وفى اخضــاع الأحداث الاجتماعية والاقتصادية جميعــا الى قاعدة المصلحة ••• وكــان هناك حنين شره الى الســلطة واللذة أدى بالضرورة الى انقسام المجتمع الغربى الى فئات متخاصمة مسلحة حتى أسنانها ، ومصممة على أن يسحق بعضها البعض الآخر متى تضــاربت مصالحها ، وحيثما اختلف أهواؤها • وفى الجانب الثقافى : كانت النتيجة خلق نموذج انسانى اقتصرت فضيلته على مسألة النفع العملى وحده ، وكان النجاح المادى المقياس الأعلى للصواب والخطأ • وبرغم الالحاح الضار الهستيرى على (المجتمع) و (الأمة) ، والخروج على الغرائز السليمة ، والعفن الذى أصــاب الأرواح ، وبلوغ اضطراب الحــياة وشقائها مداه ، فقد ندرت الحياة المشتركة بين الانسان والانسان » (٥٤)

وهذه الصورة القاتمة التى رسمها محمد أسد للغرب فى هذه الفترة، رغم بشاعتها ، فانها لم تدفعه ، هو أو غيره من جيله ، لالتماس الحل فى جهــة أخــرى غير أوروبا ، فأوروبا هى البــداية وهى النهــاية لكل أبنائها : « ••• بيد أنه لم يخطر لى مطلقا — كما لم يبد مطلقا أنه خطر لاى من الناس حولى — أنه يمكن الحصول على جواب ، أو على أجوبة جزئية على الأقل ، عن هذه الأمور المحيرة من غير تجارب أوروبا الثقافية

---

(٥٤) P. 71.

نفسها ، لقد كانت أوروبا بدأة تفكيرنا ونهايته أيضا ٠٠٠ » (٥٥) ٠ وهذا بالطبع يعنى تعصب هـذا الجيل لاوروبا مثله مثل الاغـريق والرومان القدماء ، كما يعنى ضيق أفق وقلة حيله ٠

ومع ذلك ، فهذه الأمور كانت فى خلفية قبوله لدعوة خاله دوريان لزيارته ، والاقامه معـه فى القـدس بفلسطين ، وفى أثنـاء الرحلة التقى بقسيس يسوعى فوق الباخرة التى أقلتهما الى الاسكندرية ، ودار بينهما حوار طويل ، عرض فيه القسيس تصـور النصرانية للعلاقة بين الروح والجسد ، وان النصرانية هى تخليص الانسـان من وجود حياته الحيوانية الجسدية ، وإعادته الى ميراثه الروحى ، وقد رفض محمد أسد فكرة التفريق بين الروح والجسد ، وأنهما متعـارضان ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : « ٠٠٠ أشعر أن هناك خطأ ما فى التمييز بين الجوهر والعرض فى تركيب الانسان ، وفى التفريق بين الروح والجسد ٠ باختصار ، اننى لا أستطيع أن أقر أن الدافع الجسـمانى والجسد والمصـير الدنيوى خالية من كل صـلاح ٠ ان رغبتى تسـير فى اتجاه مخالف : اننى أحلم بشكل من الحياة — ولو أننى يجب أن اعترف بأننى لا أراه بوضوح الى الآن — فيه يسعى الإنسان كله — روحا وجسدا — ويجاهد فى سبيل تحقيق ذاتى أعمق ، شكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر ، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة فى ذات نفسه٠٠» (٥٥)

ومن المؤكد أن وصول محمد أسد فكريا وعاطفيا الى هذا المنعطف يهيئه روحيا وفكريا للاسـلام وان كان ذلك بطـريق غير مباشر ، لان الاسلام يرفض التفرقة والانفصال بين جسد الانسـان وروحه ، كما سنرى تباعا فى موضعه ٠

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الجانب غير الواقعى فى النصرانية هو الذى سيطر على تقويم محمد أسد لهذا الدين ونشـاطه فى الغرب فهو

---

(٥٥) PP. 75-79.

يقول بعد : « ... فى السنوات السابقة ، عندما أصبحت قانتا من دين آبائى واجدادى ، فكرت فى النصرانية بعض الشىء ، وقد كان مفهوم النصرانية عن الله فى نظرى أسمى ، وأفضل الى حد لا نهاية له من مفهوم العهد القديم ، وذلك أنه لم يقصر اهتمام الله ومحبته على أية جماعة من الناس ، بل افترض ابوته للانسانية جمعاء ، بيد أنه كان هناك عنصر واحد فى النظرة الدينية النصرانية كان ينتقص من عالميته : تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد ، بين عالم المعتقد وعالم الشئون العملية . وبسبب من افتراق النصرانية الباكر عن جميع النزعات والميول التى تهدف الى توكيد الحياة والمساعى الدنيوية ، فقد شعرت أنها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافقة الى المدنية الغربية » (٥٦)

ويرى محمد أسد أن المعتقد الدينى فى الغرب أصبح مجرد مسكن لبؤس المجتمع الغربى وشقائه ، لم يقصد به أن يغذى أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ، وبخاصة الفضيلة الجنسية فى الرجال والنساء . وساعد على ذلك الاتجاه القديم للكنيسة فى اتباع مبدأ الفصل بين (ما لله وما لقيصر) أى الفصل بين الدين والدولة فى حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ، وكان ثمرة ذلك أن تطورت السياسة والتجارة فى الغرب المسيحى فى اتجاه مختلف تماما عن ذلك الذى كان المسيح قد دعا اليه . واعتبر محمد أسد ان ذلك فشل للدين الذى اعتنقه الغرب ، لأنه لم يزود أتباعه بارشاد ثابت مقرر فى الشئون الدنيوية وهو رسالة المسيح الحقيقية ، بل هى المهمة الرئيسية لكل دين . فالمهمة الرئيسية للدين عموما فى نظر محمد أسد هى : أن يبين للإنسان لا كيف يحس ويشعر احساسا وشعورا صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحة أيضا . وبشعور غريزى بأن دينه قد خيب أمله بطريقة ما ، فقد الإنسان الغربى ، خلال القرون ، كل ايمانه الحقيقى بالنصرانية ، وبفقده هذا

---

(٥٦) PP. 140- 41.

الإيمان ، فقد الاقتناع بأن الكون انما كان تعبيرا لقوة واحدة منظمة ، وانه لذلك كان يشكل كلا عضويا واحدا • وبسبب من انه فقد هذا الاقتناع كان يعيش الآن فى فراغ روحى وأخلاقى (٥٧) • ومن هنا فان محمد أسد يتساءل كيف يمكن للمجتمع الغربى أن يستمر فى ادعاء أنه مجتمع نصرانى ؟ وكيف يمكن له أن يرجو التغلب على فوضويته الأدبية والأخلاقية الحاضرة دون رصيد من الايمان الثابت ؟ فى نفس الوقت الذى يهجر فيه المسيحية ، وينصرف عنها ، اعلانا لثورته ضد ازدراء الحياة التى بشر بها القديس بولس ، والتى أبهمت منذ عهد قديم تعاليم المسيح تماما • وهكذا أصبح الغرب غابة من العنف ، والتدمير ، والضياع ، والحروب ، والثورات ، والثورات المضادة ، والكوارث الاقتصادية والاجتماعية التى تستعصى على الحل • ولا جدال فى أن هذا الشعور المرير بالضياع والخواء الروحى الذى عانى منهما محمد أسد فى هذه المرحلة كان من الدوافع غير المباشرة لتهيئته ، فيما بعد ، لدخول عالم الإسلام • وهذا القدر يكفينا فى تصوير موقف محمد أسد من النصرانية والغرب فى مرحلة المعايشة •

وفى المرحلة الثانية : أى مرحلة التأمل والفكر ، يحدثنا محمد أسد عن (روح الغرب) فيبين لنا أن الغرب الحديث التزم فى أوجه نشاطه وجهوده باعتبارات من الانتفاع العملى المادى ، ومن التوسع الفعال فقط ، وكان هدفه الذاتى من ذلك هو معالجة كوامن الحياة واكتشافها من غير أن ينسب الى تلك الحياة حقيقة أدبية ما فى ذاتها • أما قضية معنى الحياة ، والغاية منها ، فقد فقدت منذ زمن بعيد جميع أهميتها العملية فى نظر الأوروبى الحديث (٥٨) • وهو يرى أن الغرب الحديث يعتقد بامكان تحسن روحى مستمر للبشرية فى مجموعها ، وذلك عن طريق الرقى العملى ، وتطور التفكير العلمى • ومحمد أسد يرى أن ذلك خطأ

(٥٧) P. 141.

(٥٨) الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٣٢ •

أساسيا فى التفكير الأوروبى الحديث حينما يعتبر التزيد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفا للترقى الانسانى الروحى والأدبى ، ويرى أن هذه النظرة المغربية الآلية ترجع الى ارتكاب خطأ أساسى آخر هو تطبيق القواعد الحيوية العضوية على حقائق غير حيوية ، بالاضافة الى أن الغربيين يجحدون وجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ، ومخالفة لها • مع أن الرقى المادى والرقى الروحى فى الحقيقة لا يعارض أحدهما الآخر ، الا أنهما وجهان من الحياة الانسانية مختلفان تماما ، وليس لاحدهما بالآخر علاقة ما ، لا سلبا ولا ايجابا ، وقد يمكن أن يوجدا ، أو لا يوجدا معا (٥٩) • ومثل هذا الادراك لا يتيسر الا على أساس الاعتقاد الايجابى بوجود النفس الانسانية ، وبوجود هدف مطلق للحياة الانسانية • غير أن الأوروبى الحديث وقد جحد وجود النفس ، فلم يبق لهدف الحياة عنده أية أهمية عملية ، لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار فى الحياة وراء ظهره • إن الاتجاه الدينى يقوم على الاعتقاد بأن هناك قانونا أدبيا مطلقا شاملا ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الخضوع للدين ، وانما للمقتضيات الاقتصادية أو الاجتماعية أو القومية • إن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى ، وانما هو الرفاهية والرغبة فى القوة ، وكلا هذين موروث عن الامبراطورية الرومانية القديمة (٦٠) • فمحمد أسد اذن يصل هنا الى النتيجة التى وصل اليها فى مرحلة المعايشة ، وهى رفض الغرب للدين ، أى للنصرانية ، ولكنه يقدم لنا هنا سببين لذلك ، أحدهما : وراثة أوروبا للمدنية الرومانية فى اتجاهها المادى التام من حيث الحياة الانسانية وقيمتها الذاتية • وثانيهما : ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للدنيا ، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة فى الانسان • أما من حيث إرث الامبراطورية الرومانية القديمة : فقد كانت الفكرة التى تقوم عليها هذه الامبراطورية ، هى الاجتياح بالقوة واستغلال الشعوب الأخرى لفائدة الوطن الأم وحده ،

---

(٥٩) ص ٣٣ ــ ٣٤ من المصدر السابق •

(٦٠) نفسه ، ص ٣٤ ــ ٣٥ •

وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون فى عنفهم سوءا ، ولا فى ظلمهم انحطاطا • أما (العدل الرومانى) الشهير فقد كان عدلا للرومان وحدهم • ويعتبر محمد أسد أن اتجاها كهذا لا يمكن أن يتيسر الا اذا كان على أساس من الادراك المادى الخالص للحياة وللحضارة ، وبعيد عن جميع القيم الروحية • وهو يرى أن الرومان فى الحقيقة لم يعرفوا الدين ، وأن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للأساطير اليونانية ، لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظا للعرف الاجتماعى، ولكن لم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية ، بل ولم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع أخلاقية • هذه اذن هى التربية التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة ، وعلى الرغم من ظهور مؤثرات أخرى كثيرة برزت أثناء تطورها ، بالاضافة الى عناصر التبديل والتحوير فيما ورثه الغرب عن روما فى أكثر من ناحية ، الا أن هناك حقيقة باقية هى أن كل ما هو اليوم حقيقى فى نظرة الغرب للحياة والاخلاق انما يرجع الى المدنية الرومانية • وكما كان الجو الفكرى والاجتماعى فى روما القديمة نفعيا بحتا ولا دينيا ، فكذلك يكون الجو فى الغرب الحديث • وقد يتسامح التفكير الأوروبى الحديث مع الدين ، وأحيانا يؤكد أنه عرف اجتماعى ، ولكنه يترك الاخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية • فالمدنية الغربية لا تجحد الله البتة ، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لوجود الله فى نظامها الفكرى الحالى ، لانه نظام يقوم على الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ذات الأهمية العملية ، وتلك التى ينتظر منها أن تؤثر فى صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة • وحيث أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ، ولا تحت ذاك ، فان العقل الأوروبى يميل بداءة الى اسقاط الله من دائرة الاعتبارات العملية (٦١) •

وهنا يصل محمد أسد الى النتيجة المباشرة لهذا العرض ، وهى أن الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب ينبغى أن تطلب فى فهم الرومان

---

(٦١) نفسه ، ص ٣٨ — ٣٩ •

القدماء للحياة باعتبارها قضية منفعة ، خالية من كل استشراف مطلق ، وهذا الاتجاه لا يمكن أن يتفق مع طريقة التفكير المسيحى ، القائم على عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة ، ومن هنا فانه يعد خطأ تاريخيا فادحا أن نعتقد بأن المدنية الغربية الحديثة نتـــاج للنصرانية ، لأنها مدنيـــة لا دينية فى جوهرها (٦٢) ، انما الصحيح واقعيا وتاريخيا انها نتاج إرث المدنية الرومانيـــة •

أما فيما يتعلق بالسبب الثانى من أسباب رفض الغرب للدين ، وهو ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للدنيا ، وعلى كبت الرغبات الطبيعية ، والجهود المشروعة فى الانسان ـــ فان محمد أســـد يرى أن النصرانية لم تساهم الا بجزء يسير جدا فى الرقى العلمى المادى الذى تفوق به الغرب فى مدنيته الحاضرة على كل ما سواه بل الحقيقة أن ذلك الرقى لم يظهر الا من خلال كفاح أوروبا المتصـــل للكنيســـة النصرانية ولنظرتها للحياة • لقد عانت أوروبا قرونا طويلة من نظام الكنيسة الدينى، القائم على احتقار الحياة ، واحتقار الطبيعة • ومن الطبيعى أن يقف مثل هذا النظام عقبة كؤودا أمام تطور المعارف الدنيوية ، وتحسين أحـــوال الحياة على الأرض ، وهكذا أخضعت الكنيسة الفكر الأوروبى زمنا طويلا فى سبيل ادراك سىء للوجود الانسانى ، وأثناء العصـــور الوسطى حين كانت الكنيســـة قوية ، وسلطتها تمتـــد الى كل شىء فى أوروبا ، لم يكن لأوروبا نشاط ما فى حقول البحث العلمى ، بل أنها حتى خسرت كل صلة حقيقية بالنتاج الفلسفى اللاتينى والاغريقى ، ذلك النتاج الذى سبق له أن انبثق من الثقافة الأوروبية • ورغم العديد من ثورات الفكر الأوروبى، الا أن الكنيســـة كانت تنجح فى قهرها مرة تلو الأخرى ، ومن هنا فان تاريخ العصور الوسطى يمتلىء بهذا الكفاح المرير بين عبقرية أوروبا وبين روح الكنيسة (٦٣) • وهكذا اتلفت العصور الوسطى القوى المنتجة فى

---

(٦٢) نفســه ، ص ٣٩ ـ ٤٠ •

(٦٣) المرجع الســابق ، ص ٤٠ ـ ٤١ •

أوروبا : فقد كانت العلوم فى ركـــود ، والخرافات ســائدة ، والحيـــاة الاجتماعية فطرية خشنة الى حد يصعب تخيله اليوم ، ولم يتحرر العقل الأوروبى من القيود العقلية التى فرضتها عليه الكنيسة النصرانية الا أثناء عصر النهضة ، التى كانت تدين إلى حد بعيد لذلك العامل الثقافى الذى نقله العرب الى الغــرب (٦٤) ٠

ومحمد أسد يعتبر أن الذى صنعه العرب ، المسلمون ، كان أكثر من بعث لعلوم الاغريق القديمة : لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا كـل الجدة ، ووجدوا طرائق جديدة للبحث ، وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله ، بوسائط مختلفة ، الى الغرب ، من هنا فانه لا يرى أن هنـاك مبالغة فى القول بأن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يبدأ فى مدن أوروبا النصرانية ، وانما بدأ فى المراكز الاسلامية فى دمشق وبغداد والقــاهرة وقرطبة (٦٥) ٠

وهذه اللفتة من محمد أسد للتراث الاسلامى ، ودوره الجوهرى فى ظهور الحركة العلمية والتقنية الحديثة فى الغرب تعد انصافا لهذا التراث الذى يرفض الاعتراف بدوره كثير من مؤرخى الغرب ٠

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الجســور الفكرية التى أمتــدت بين الثقافة الاسلامية والغرب مكنت خيرة العقول فى أوروبا من أن تناضـــل بعزم جديد تلك السيطرة الشاملة التى كانت للكنيســة النصرانية على شتى أوجه الحياة فى الغرب ٠ وأخذ هذا النضال ، فى بداية الأمر ، شكلا خارجيا تمثل فى حركات الاصلاح الدينى التى ظهرت فى وقت واحد تقريبا فى بلاد أوروبا المختلفة ، وكان الهــدف منهــا : تكييف طريقــة التفكير النصرانى حسب مقتضيات الحياة الجديدة من ناحية ، والتوفيق بين العلم

(٦٤) نفســه ، ص ٤٢ ٠
(٦٥) نفســه ، ص ٤٣ ٠

وبين التفكير الدينى فى أوروبا من ناحية أخرى ، ولم تلق هذه الحركات نجاحا روحيا حقيقيا ، لأن النتائج السيئة التى خلفتها كنيسة العصـــور الوسطى كانت أبعد أثرا من أن تزال عن طريق إصلاح دينى ، الذى تحول بعد قليل الى نزاع سياسى بين أقوام من أصحاب الأغراض الدنيوية ، ومع مرور الزمن كانت السلطة الروحية للتفكير الدينى النصرانى تضعف شيئا فشيئا ، الى أن جاء القرن الثامن عشر ، وأزيلت سيطرة الكنيســة تماما على يد الثورة الفرنسية فى فرنسا نفسها ، ثم بآثار تلك الثورة فى بلاد أوروبا الأخـــرى (٦٦) •

ومع بدء عصر الصناعة ، وضجيج التقدم المـــادى المذهل ، توجه الغرب نحو منافع جديدة ، وهذا ، من جديد ، ساهم فى إحداث الفراغ الدينى الذى تلا ذلك العهد فى أوروبا •

وبتحرر العقل الأوروبى من عبوديته الأولى للكنيسة ، تخطى ، فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، تلك الحدود ، ووطد عزمه تدريجيا على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحى على الانسان • ومن ثنايا هذا الخوف الباطن ، ولكيلا تعود تلك القوى التى تدعى السلطان الروحى مرة ثانية الى السيطرة ، أقامت أوروبا من نفسها زعيما على كل ما هـــو ضد الدين مبدئيا وعمليا ••• لقد رجعت أوروبا الى إرثها الرومانى (٦٧) •

ومن هنا فان تمكن الغرب من بلوغ هذا الحد من الرقى البـــاهر لا يرجع الى تفوق كامن فى النصرانية ، وانما هو فى الحقيقة أثر من آثار مقاومة القوى العقلية فى أوروبا لكل مبدأ من مبادىء الكنيسة (٦٨) •

---

(٦٦) نفســه ، ص ٤٤ •
(٦٧) نفســه ، ص ٤٤ — ٤٥ •
(٦٨) نفســه ، ص ٤٦ •

لقد كانت ثورة الغرب على الكنيسة ثورة مظفرة تماما ، مظفرة الى حد جعل الفرق النصرانية ، والكنائس المختلفة ، مرغمة على أن تــلائم شيئا فشيئا بين بعض عقائدها ، وبين الأحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة فى أوروبا • وهكذا بدلا من أن تؤثر النصرانية فى حياة أتباعها الاجتماعية، وتبدل فيها ــ كما يقضى الواجب الدينى الأول ــ فانها سكتت عما يقره العرف ، وكانت فى نفسها ستارا للمشروعات السياسية • ثم أن للنصرانية اليوم فى نظر السواد الأعظم من الأوروبيين معنى شكليا فقط ، كما كانت حال آلهة روما التى لم يكن يسمح لها ، ولا ينتظر منها ، أن يكون لها نفوذ حقيقى ما على المجتمع • إن الأوروبى العادى ، أيا كان اتجاهه الفكرى ــ سواء عليه أكان ديمقراطيا أم فاشيا ، رأسماليا أم بلشفيا ، صانعا أم مفكرا ــ لا يعرف الا دينا ايجابيا واحدا ، هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن الهدف الوحيد فى هذه الحياة هو جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر • أما هياكل هذه الديانة : فهى المصانع الضخمة ، ودور السينما والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء • وأما كهنة هذه الديانة : فهم الصيارفة والمهندسون، وكواكب السينما، وقادة الصناعة، وأبطال الطيران • والنتيجة الحتمية من وراء ذلك هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، عن طريق خلق جماعات متخاصمة ، مدججة بالســلاح ، ذات تصميم على أن يفنى بعضها البعض الآخر حينما تتصــادم مصــالحها المتقــابلة (٦٩) •

أما على الجانب الثقافى وفى دائرة الأخلاق : فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مســائل الفائدة العملية ، كما يبرز أسمى فارق لديه بين الخير والشر فى التقدم المادى • واذا تأملنا الحياة الاجتماعية فى الغرب الآن فسنجد تلك الفلسفة الأخلاقيــة الجديدة ، المبنية على الانتفــاع ، تبرز للعيان شيئا فشيئا خاصــة فى مجال الحب الأبوى ، أو الروابط الأسرية عموما ، وكذلك العفاف ، وكلاهما يخسر من

---

(٦٩) المرجع الســابق ، ص ٤٧ ــ ٤٨ •

قيمته بسرعة ، لأنه لا يهب المجتمع فائدة مادية محسوسة : فالحرص على الروابط الأسرية المتينة فى الغرب الحديث قد تبدل الآن الى غير رجعة ، وأصبح الوالد الأوروبى يفقد فى كل يوم شيئا من سلطته على ابنه ، أو ابنته ، وكذا الابن ، أو الابنـة ، يفقد من احترامه لأبيه ، ومع مـرور الأيام تصبح الصلة القديمة بين الأب وابنه مهجورة تماما (٧٠) .

أما العفاف والاحصان ، فهما يصبحان مع الأيام خبرا ماضيا فى الغرب الحديث ، لأنهما مفروضـان من طريق الخلق فحسب ، وليس للاعتبارات الخلقية أثر مباشر محسـوس فى رفاهية الشـعب المادية ، وبالتالى فلا قيمة لهما ، ونراهما يذوبان ليحل محلهما الفضائل الغربية الجديدة ، وقوامها حرية فردية للجسد البشرى غير مقيدة بأى قيد (٧١) .

وأخيرا يعتبر محمد أسد أن طرفا دائرة الأخلاق فى الغرب — وهما الروابط الأسرية والعفاف فى الصلات بين الجنسين — قد بلغا نهايتهما المنتظرة فى روسيا السوفيتية ، التى لا تمثل من الناحية الثقافية تطورا مختلفا فى أسـاسه عما فى سائر العالم الغربى . وسيتضح تشـابههما الباطنى على نحو أبرز فى المستقبل القريب ، وأن كان منذ الآن يظهران الاتجاه الأساسى فى الرأسمالية الغربية وفى البلشفية كلتيهما ، انما هو التخلى عن شخصية الانسان الروحية وفضائله الخلقية للمقتضيات المادية فى مجمـوع آلى يدعونه (المجتمـع) حيث لا يكون الفرد الاسـنا فى دولاب (٧٢) .

واذن ، فمحمد أسد يعتبر أوروبا فى ضياع وخواء روحى ، جريا وراء المنفعة المادية الصرفة ، أما جذور ذلك الضياع الروحى فيرجـع الى : الارث الذى ورثه الغرب من المدنية الرومانية ، وهو ارث مادى نفعى فى

---

(٧٠) نفسـه ، ص ٤٨ — ٤٩ .
(٧١) نفسـه ، ص ٤٩ .
(٧٢) نفسـه ، ص ٥٠ .

جملته وتفاصيله • والسبب الثانى لضياع الغرب : هو ثورة أوروبا على الكنيســـة النصرانية وما استتبع ذلك من انصراف عن الدين عموما ، والاكتفاء بمبدأ المنفعة المادية وأسلوبها فى جميع المجالات ، خاصـــة فى مجال الروابط الأسرية ، وفى مجال العفاف الجنسى فى العلاقة بين الرجل والمـــرأة •

وأنظار محمد أسد هذه ، رغم انها كتبت فى أواخر الأربعينات وأول الخمسينات ، لتسجيل أحداث العقود الأولى من مطلع القرن ــ الا أنها لا زالت سارية المفعول ، وقد يكون الغرب فى حال أسوأ ، ولكن ذلك لن يزيد عن كونه امتدادا طبيعيا للأوشاب التى لاحظ محمد أسد مقدماتها وبوادرها فى مطلع القرن وفى منتصفه • واذن ، فهذه الأنظار هى صيحات تحذير للمسلمين من أبناء الشرق ، خاصة المنادين بالاتجاه العلمانى ، أولئك الذين فتنتهم الحضارة الغربية الحديثة بمادياتها وعلومها ، وأولئك الذين تشككوا فى اسلامهم فانصرفوا عنه ، مجاراة لسلوك الأوروبى مع دينه ، وهو قياس فاسد • فشتان ما بين الاسلام وبين غيره من الأديان ، وسنرى ذلك تباعا فى الفقرة التالية ، ان شـــاء الله •

ومهما يكن من أمر ، فان ما ذكره محمد أسد فى تحليله لموقف الغرب من الدين والقيم والفضائل الأخلاقية ــ أصبح تراثا أساسيا فى خلفية كل الكتاب والمفكرين المسلمين المحدثين والمعـــاصرين والمؤرخين للفـــكر الاسلامى الحديث والمعاصر ، سواء ذكروا ذلك مباشرة ، أم لم يذكروه ، ولكنه ظهر على اتجاههم الفكرى فى مؤلفـــاتهم ، خاصة فى حديثهم عن الغرب • ولا بأس من مراجعة مؤلفات أبو الأعلى المودودى فى المواضـــع التى تحدث فيها عن مجريات الأمور فى الغرب ، وكذلك أبو الحســـن الندوى ، والدكتـــور / محمد البهى ، وســـيد قطب ، ومحمد قطب ، والدكتور / فتحى عثمان ، وغيرهم الكثير •

وأخيرا ، وليس آخرا ، فان محمد أسد برفضه لليهودية ، دين آبائه وأجداده ، وبرفضه للنصرانية والمدنية الغربية ، فانه يتجه ، لا إراديا ،

الى وجهة أخرى ، فى البحث عن الذات ، وعن الحقيقة • وهذا الاتجاه الجديد ، هو الاسلام • فلنمض معا سويا لنشاركه فى بحثه وكشــوفه • ولنر كيف تتفتح أمامه أبواب هذه المدنية الخالدة •

محمد أســد والاســلام : ـــ

أن تجربة محمد أسد مع الاسلام هى تجربة فريدة ، بكل المقاييس ، فى مجال الفكر والروح والوجدان • وحين يروى لنا تجربته هذه ، فانه ينجح فى أن يستدرجنا الى مشاركته صميم انفعالاته ومشاعره وأفكاره ، فى رحلته هذه الى أعماق الاسلام ، وعالم الاسلام • وعلى نحو ما كانت تجربة محمد أســد مع النصرانية والغرب فى اطار مرحلتين • فإنا نراه هنا كذلك ، فى حديثه عن الاســلام يمر بمرحلتين : مرحلة المعايشــة والبحث عن الذات والحقيقة ، ومرحلة التأمل والفكر العقلانى والفلسفى •

وتبدأ مرحلة المعايشة مع الاسلام وعالمه لدى محمد أســد برؤيا يراها فيما يرى النائم ، قبل مجيئه الى بلاد الاســلام ، أثناء دراسته لعلم النفس بجامعة فيينا ، واهتمامه بفكر فرويد فى التحليل النفسى ، والدوافع الخفية غير الواعية فى تكوين الشخصية الانسانية • وكان يطبق هذا الفكر على رؤاه ، ولذلك كان يسجل هذه الرؤى بمجرد استيقاظه من نومه • واحدى هذه الرؤى كان له ارتباط بتجربته مع الاســلام : فقد رأى نفســه فى برلين مستقلا القطار الذى يســير أحيانا فى نفق تحت الأرض ، وأحيانا أخرى فوق الجسور الممتدة عاليا فوق الشوارع ، وكان القطار مزدحما للغاية بالركاب بحيث لم يكن هناك محل للجلوس ، ممــا اضطر الجميع الى الوقوف وقد التصق بعضهم بالبعض الآخــر ، غير قادرين على الحركة وكان هناك مصباح كهربائى واحد يعطى بصيصا من النور ، وبعد برهة خرج القطار من النفق ، ولكنه لم يصعد الى واحــد من تلك الجســور العالية ، بل خرج عوضا عن ذلك ، الى سهل فسيح منعزل من الطين وتوقف القطار بعد أن غاصت عجلاته فى الطين ، ولم

يعد باستطاعته أن يتقدم أو يتأخر خطوة واحدة • وغادر جميع المسافرين القطار ، بما فيهم هو ، وأخذوا يتلفتون حولهم • وكان السهل حولهم لا نهاية له خاليا من كل شيء ، واحتار الركاب وتساءلوا عن كيف يستطيعون أن يجدوا طريقهم الى حيث يعيش الناس ؟ وما الذى جاء بهم الى ذلك القفر الموحش ؟ وكان السهل الفسيح يظلله نور أشهب معتم كما لو كان الوقت فى بكور الفجر ••• ولكنه لم يشاركهم قلقهم وحيرتهم ، وانما شق طريقه بين الجموع ورأى على بعد عشر خطوات تقريبا جملا رابضا على الأرض ، وكان عليه سرج ، بنفس الطريقة التى رآها فيما بعد فى شبه الجزيرة • وكان يمتطيه رجل يرتدى عباءة مخططة باللونين الأبيض والبنى ، ذات كمين قصيرين ، وكانت كوفيته تنسدل على وجهه بحيث لم يتمكن من تمييز ملامحه • ووقع فى نفسه للوهلة الأولى أن الجمل كان ينتظره هو ، وأن الراكب الساكن سوف يكون دليله ، وهكذا ، دون كلمة ، امتطى محمد أسد ظهر الجمل خلف السرج ، على نحو ما يركب الرديف فى بلاد العرب ، وعلى الفور نهض الجمل بخطوات واسعة مرحة ، وشعر بسعادة لا يستطيع لها وصفا • وسارا فى تلك المشية السريعة الناعمة ما بدا له فى بادىء الأمر ساعات ، ثم أياما ، ثم أشهرا •• الى أن فقد كل احصاء للزمن • ومع كل خطوة من خطوات الجمل ، كانت سعادته تزداد ، الى أن خال نفسه كما لو كان يسبح فى الهواء • وفى النهاية أخذ الأفق الى يمينهما يحمر تحت أشعة الشمس التى كانت على وشك الشروق ، الا أنه رأى بعيدا فى الأفق أمامه نورا آخر كان منبعثا من وراء باب ضخم مفتوح ، قائم على دعامتين — نور أبيض يبهر الأبصار — لا أحمر كنور الشمس المشرقة عن يمينه • نورا باردا أخذ يزداد بريقا باضطراد كلما اقتربا ، وجعل السعادة التى كانت تغمره تفيض الى درجة لا يستطيع لها وصفا • واذ اقتربا من ذلك الباب ومن نوره ، سمع صوتا من مكان ما يعلن : « هذه هى مدينة أقصى المغرب » !• وهذه هى نهاية رؤياه (٧٣) •

---

(٧٣) PP. 168-69.

وكان على محمد أسد ، وعلينا ، أن ننتظر حوالى تسـع سنوات تقريبا ، لنظفر بتعبير لهذه الرؤيا من الملك عبـد العزيز ، الذى استمع لرؤياه وفسرها له ، بأنها ارهاص باعتناقه الاسلام ، وأما حشد الناس ومجيئهم الى القفر الخـالى وحيرتهم ، فهى حالة أولئك الذين تصفهم سورة الفاتحة بـ « الضالين » . أما الجمل الذى كان ينتظر مع راكبه فهو الهداية التى ذكرها القرآن كثيرا . أمـا الراكب الذى لم يكلمه ، والذى لم يستطيع أن يتبين ملامحه فهو الرسول ﷺ ، وقد كان ﷺ يحب أن يلبس عباءة ذات كمين قصيرين ، وقد ذكـرت كثير من الكتب الاسلامية بأن الرسول ﷺ اذا ظهر فى رؤيا للذين لم يعتنقوا الاسـلام بعد ، فانه لا يظهر الا ووجهه مغطى دائما . أما النور الأبيض البـارد الذى رآه فى الأفق فهو نور الايمان الذى يضىء من غير أن يشتعل وهو لم يبلغه فى الرؤيا لأنه لم يكن قد أسلم بعد ، وحين يسلم بعد سـبع سنوات سيعرف أن الاسلام هو الحق وحده . أما مدينة أقصى الغرب فمعناها أن بلوغه الاسلام سيكون أقصى نقطة فى الغرب فى حياته وأن حياة الغرب بعد ذلك لن تعود حياته (٧٤) . ويعقب الملك عبـد العزيز آل سعود على هذه الرؤيا بأن المستقبل لا يعلمه أحـد الا الله . ولكنه تعالى يشاء أحيانا أن يعطينا ، عن طريق الرؤيا ، لمحة عما سيحدث لنا فى المستقبل (٧٥) . ومهما يكن من أمر فقد أثبتت الأحداث التالية حسن فراسته وصدق تعبيره رؤيا محمد أسـد .

وحين بدأ محمد أسد رحلته الأولى الى الشرق فى صيف عام ١٩٢٢ ، كان عليه ، بعد وصوله الى الاسكندرية ، أن يستقل قطارا الى فلسطين ، وفى الطريق لم ينس لحظة واحدة أن يشركنا انطباعاته الوجدانية عن معـالم الطبيعة والمخلوقات والناس ، وبكل المدن التى مر بهـا الى فلسطين ، وهى كلها مدن مصرية ولابد أن نقـرر هنا أن انطباعـاته الوجدانية هذه تعبر عن احساس بالاعجاب والإنبهار الشديد استولى

---

(٧٤) P. 170.

(٧٥) P. 170.

على محمدأسد للوهلة الأولى ، وفى أولخطواته داخل بلاد الإسلام(٧٥) . ويستوقفنا من هذه الانطباعات حديثه عن البدوى العربى الذى شاركه رفقة بعض الطريق فى القطار فى سيناء وكيف أن هذا البدوى حين ابتاع قطعة من الكعك ، من احدى المحطات التى وقف القطار فيها ، قسمها نصفين ، قدم اليه أحدهما ، دون أن ينطق بكلمة مكتفيا بابتسامة لطيفة ، وبعد قليل قال له: بأنهما مسافران وطريقهما واحدا ! ويعقب محمد أسد على ذلك بقوله « ... وعندما أفكر الآن بذلك الحادث البسيط ، يخيل الى أن حبى كله للخلق العربى فيما بعد قد تأثر به . ذلك أن فى بادرة هذا البدوى الذى شعر ، رغم جميع حواجز الغربة ، بصداقة رفيق عابر له فى السفر ، فقاسمه الخبز — نفحة من الانسانية ، أحسست بها خالية من أى تصنع أو تكلف » (٧٦) .

وهذا الانطباع الأولى الذى يحمل معانى الإعجاب والإنبهار ، دفع محمد أسد الى التأمل فى كل ما حوله ، ومن حوله ، ليفهم هذه الحياة ، وهذا العالم الجديد « ... وشعرت برغبة قوية فى أن أفهم حياتهم .. » (٧٧) .

وهكذا حينما استقر فى بيت خاله دوريان بمدينة القدس القديمة ، وكان ينصرف ، حين تمطر السماء ، الى مشاهدة الفناء الخلفى للبيت حيث تشغله وكالة محلية للنقل عن طريق الدواب ، وكان يملك هذه الوكالة حاج عربى . وقد أعجب محمد أسد بالعمال الذين كانوا يعملون بهذه الوكالة ، « ... لقد كانوا فقراء لا تستر أجسامهم سوى ثياب رثة بالية ، ولكنهم كانوا يتصرفون كالسادة العظام عندما كانوا يجلسون معا يتناولون الطعام على الأرض ، ويأكلون أرغفة الخبز المنبسطة مع قليل من الجبن أو حبات الزيتون ، لم أكن أملك الا أن أعجب بنبل جلدهم واحتمالهم وهدوئهم الداخلى : كنت تستطيع أن ترى أنهم يكنون الاحترام لأنفسهم،

---

(٧٥) PP. 79- 85.

(٧٦) P. 83.

(٧٧) P. 84.

ولأمور حيـــاتهم اليومية » (٧٨) •

أما الحـــاج ، فقد كـــان يتجول بينهم وكأنه زعيم عليهم ، وهم يطيعونه دونما تردد أو سؤال ، وكان يجمعهم عدة مرات فى النهـــار للصلاة ••• وكان هو أمامهم • وقد شد انتباه محمد أسد تفاصيل حركات الصلاة الإسلامية فوصفها بدقة ، ولكنه لم يكن يفهم مغزى حركات الجسم فى هذه الصلاة « •• والحق أنه قد أزعجنى أن أرى مثل تلك الصـــلاة العميقة مقترنة بحركات جسمانية آلية ••• » (٧٩) • فسأل الحاج عن ذلك قائـــلا :

« ••• هل تعتقد حقا أن الله ينتظر منك أن تظهر له احترامك عن طريق تكرار الانحناء والركوع والسجود أليس من الأفضل أن يقتصر المرء على النظر داخل نفسه وأن يصلى الى الله فى هدأة قلبه ؟ لم كل حركات جسمك هذه ؟ » (٨٠) • وقد أجابه الحاج بأن الله قد خلق الجسد والروح معا ، ومن ثم ، يجب على الإنسان أن يصلى بجسده ، كما يصلى بروحه : واستطرد الحاج فى شرح مغزى كل حركة من حركات الصلاة الإسلامية ، على النحو الذى نعرفه نحن المسلمين (٨١) • وقد تأثر محمد أسد الى حد بعيد بهذا الشرح البسيط ، من هذا الرجل المسلم ، واعتبر ذلك فيما بعد ، أول باب يفتح له للدخول فى دين الإسلام • « وبعد ذلك بسنوات عدة أدركت أن الحاج بتفسيره البسيط ، قد فتح لى أول باب للدخول فى دين الإسلام ، ولكن حتى فى ذلك الوقت ، أى قبل أن يخالجنى بزمن طويل أيما تفكير فى أن الإسلام يمكن أن يصبح دينا لى ، بدأت أشعر بخضـــوع غير عادى كلما رأيت ، وكثيرا ما رأيت ، رجلا يقف عـــارى

---

(٧٨) P. 87.

(٧٩) PP. 87-88.

(٨٠) P. 88.

(٨١) PP. 88-89.

القدمين على سجادته المخصصة للصلاة ، أو على حصيرة من قش ، أو على الأرض العارية ، مكتوف الذراعين ، محنى الرأس مستغرقا بالكلية فى ذات نفسه ، ناسيا كل ما يجرى حوله ، سواء كان ذلك فى أحد المساجد أو على رصيف أحد الشوارع المكتظة : رجلا مطمئنا الى نفسه » (٨٢) •

وهذا الباب الذى فتح أمام محمد أسد للدخول فى الإسلام ، الى جانب العديد من الانطباعات الشخصية الأخرى ، دفعه الى حب العرب والمسلمين عموما ، حتى قبل أن يعتنق الإسلام، وأن يبدى اهتماما متزايدا بطريقة ادراكهم لمعنى الحياة ، وبخلوهم من الصدوع الروحية المؤلمة ، وبرشاقتهم العاطفية فى معالجة أمور الحياة •• « لقد قابلت وجها لوجه ادراكا لمعنى الحياة كان جديدا بالكلية بالنسبة الى ، فقد بدا لى أن هناك نسمة دافئة انسانية تسيل من دم هؤلاء العرب الى أفكارهم ، وحركاتهم خالية من أى من تلك الصدوع الروحية المؤلمة ، تلك الأشباح من الخوف والفهم والكبت التى كانت تجعل الحياة الأوروبية بشعة جدا ، ولا توحى الا بالقليل من الأمل • لقد بدأت أجد فى العرب شيئا طالما فتشت عنه من غير شعور : رشـــاقة عاطفية فى معالجة مســائل الحياة جميعا ، وذوق شعورى أعلى • ومع الزمن أصبح أهم شىء بالنسبة الى ، أن أفهم روح أولئك المسلمين : لا لأن دينهم كان قد استمالنى ، ذلك أننى لم أكن أعرف فى ذلك الحين الا أقل القليل ، بل لأننى وجدت فيهم الالتئام العضـــوى بين العقل والأحاسيس ، ذلك الإلتئام الذى كنا ، نحن الأوروبيين ، قـــد فقدناه ••• » (٨٣) • وهذا التماسك والإنسجام الذى لاحظه محمد أسد بين العقل والحس فى سلوك المسلمين ، وهو أمر فقده الاوربيون منذ أمد بعيد ، دفعه الى التأمل فى امكانية استعادة الغرب لوحدته الذاتية المفقودة، وكشف جذورها ، وأسبابها ، عن طريق تفهم أفضل لحياة العرب : ما هو هذا الشىء الذى جعل الغربيين يهربون من حرية الحياة المقدسة ، التى

---

(٨٢) P. 89.

(٨٣) PP. 99-100.

يمتلكها العرب ، حتى فى انحطاطهم وانحلالهم الاجتماعى والسياسى ، والتى لابد أن الغرب كان يملكها منذ زمن بعيد ، والا فكيف أنتج روائع الفنون فى جميع المجالات : الكاتدرائيات القوطية فى القرون الوسطى ، الجذل المفرط فى عصر النهضة ، روائع رامبرانت وباخ ، أحلام موزار الهادئة ، وقصف بيتهوفن والارتقاء التواق الى القمم الغامضة التى لا تدركها المشاعر والعقول ، والتى عليها يمكن للانسان أن يقول : أنا ومصيرى شىء واحد (٨٤) •

وقد أدرك محمد أسد أن فقد الغرب لهذه القوى الروحية حرمته من أن ينجب بعد الآن عباقرة من أمثال بيتهوفن ورامبرانت ، ولم يعد هنالك سوى التسكع وراء « الصيغ الجديدة فى التعبير » فى مجال الفنون وعلم الاجتماع والسياسة ، وسوى صراع الشعارات المتناقضة والمبادىء المصطنعة • أن كل الآت الغرب ومنشئاته لم تعد تستطيع استعادة روح الغرب المحطمة • وهنا يتساءل محمد أسد : هل ضاعت حقيقة عظمة أوروبا الروحية الى الأبد ؟ أليس فى الامكان استعادة بعضها عن طريق اكتشاف ما فينا من قصور ؟ (٨٥) • وغنى عن البيان أن محمد أسد أدرك هنا منذ الوهلة الأولى ، أن استعادة روح الغرب وعظمتها الروحية ، أو حتى بعضها ، لن يتيسر الا عن طريق اكتشاف أوجه قصور الغرب من ناحية ، وجوانب عظمة الاسلام والمسلمين والعرب من ناحية أخرى ، من هنا فقد تحول بحثه فى أساس الأمن العاطفى للعرب ، وأسباب اختلاف حياتهم وأخلاقهم عن الحياة والأخلاق الأوروبية ، والأفكار التى صاغتها من الناحية الروحية — من مجرد تعاطف الى تحقيق شخصى ، ورغبة ملحة تتصل بصميم مشاكله النفسية الخاصة ، بحيث أنه أخذ يقرأ كثيرا عن تاريخ العرب وثقافتهم ودينهم • وهدفه النهائى هو اكتشاف ذلك الشىء الذى كان يحرك قلوبهم ، ويملأ عقولهم ويرشدهم ، لأنه

---

(٨٤) P. 100.

(٨٥) PP. 100-1.

يشـــعر بدافع خفى انها ستكون عوامل تحريك نفســـه ، وملء عقله ، وارشـــاده • ومهما يكن من أمر ، فان هذه الرغبة الواعية المتعمدة من محمد أسد فى البحث عن كل ما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، لازمته فى كل خطواته وتنقلاته • فبعد قليل ســنراه فى القاهرة وهو يحدثنـــا عن تأملاته ، ويحدثنا عن المسجد الصغير ذى المئذنة الدقيقة ، القريب من منزله ، وكان المؤذن يدعو الى الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحـــد ، وكان يرى أن صـــوت المؤذن الناعم القوى يرجع فى جماله الى الغيرة والحماسة ، وليس الى الفن ، وعلى كل حال فترتيلة المؤذن هى اللحـــن الدائم الذى يسمعه الناس فى أراضى الاسلام كلها بنفس الجرس • وهذه الوحدة الصوتية جعلت محمد أسد يدرك وهو فى القاهرة مقدار عمق الوحدة الباطنية لدى جميع المسلمين لقد كانوا واحدا فى اعتقادهم وفى طريقة تفكيرهم ، وفى تمييزهم للحق والباطل ، وفى فهمهم قـــوام الحياة الخيرة • وأدرك أنه قد صادف لاول مرة « مجتمعا لم تكن فيه صلة النسب بين الانسان والانسان مسببة عن طوارىء من مصـــالح اقتصادية أو عنصرية ، بل على شىء أعمق وأكثر استقرارا الى حد بعيد : صلة من الفهم المشترك للحياة أزالت كل حواجز العزلة والانفراد بين الانســـان والانســـان » (٨٦) •

وفى صيف عام ١٩٢٣ وصل الى دمشق بعد سلسلة من المغـــامرات والمخاطر ، طوال الطـــريق من القدس الى دمشق ، ولكنه وجد هنـــاك ما يعوضه عن هذه المشقة التى كابدها : ففى تجواله فى أزقة الســـوق الرئيسية فى دمشق ، وقف على الاستقرار الروحى فى حياة الســـكان ، وكان يلاحظ أمنهم الباطنى فى الطريقة التى كان يتصرف بها أحدهم نحو الآخر ، فى اللقاء والوداع ، فى السير معا وأحدهما يمسك بيد الآخـــر كالأطفال لشعورهما بالود المتبادل ، أما طريقة معاملة أصحاب الدكاكين بعضـــهم البعض الآخر ، فذلك أمر لا يمكن أن يشـــاهد فى أوروبا على

---

(٨٦) PP. 108-9.

الاطلاق ، فقد يترك أحدهم دكانه فى عهدة جاره كلما دعته الحاجة الى التغيب بعض الوقت ، فيقوم هذا الجار بالبيع للزبون من دكان صــاحبه الغائب كأنها دكــانه هو ، ويترك ثمن المبيع على المقعــد ، كل ذلك دون ما حساسية أو حســد (٨٧) •

وقد لاحظ أن يوم الجمعة فى دمشق ليس مثل أيام الأحد فى أوروبا حيث تصمت شوارع المدينة ، وتغلق المخازن ، وتضيق الصدور بالفراغ لأن الحياة اليومية فى الغرب عبء ثقيل لا يرتاحون منه الا أيام الاحاد ، وهكذا فيوم الأحد فى الغرب ليس يوم راحة فحسب ، بل هو أيضا مهرب الى اللاحقيقى ، نسيان خادع تكمن وراءه أيام الاسبوع مضاعفة الثقل• أما بالنسبة للعرب ، فلم يكن يوم الجمعة فرصة ، لنسيان أيام عملهم ، لأن هذا العمل لم يكن يتعارض مع رغباتهم الشخصية ، ولم يكن هنالك أى مجال للملل ، فقد كانت هناك صلة باطنية بين العامل وعمله ، مما يجعل الراحة غير ضرورية له إلا إذا شعر بالتعب ، ومن هنا لم يفرض الاسلام أية راحة اجبارية يوم الجمعة ، انه اعتبر التوافق بين الانســان وعمله هو الحالة الطبيعية للاشياء وكان الصناع أصــحاب الدكاكين الصغيرة يعملون ســاعات قليلة ، ثم يتركون دكاكينهم بضــع ساعات لاداء الصلاة فى المساجد ، ثم يعودون الى دكاكينهم للعمل من جديد ، وهكذا كانت المدينة مملوءة بالجلبة والضجيج فى يوم الجمعة شأنها شأن سائر الأيام فى الاسبوع ، باستثناء فترة الصلاة • (٨٨)

وفى أحد أيام الجمعة فى دمشق ذهب محمد أسد فى صحبة مضيفه السورى الى الجامع الأموى ، وأعجب بعمارته من الداخل ، ولكنه بهرته صلاة الجمعة حيث يقف مئات الرجال فى صفوف طويلة مستقيمة وراء الإمام يتحركون فى وحدة منظمة كالجنود ، ومن بعيد كان باستطاعة المرء

---

(٨٧) P. 125.

(٨٨) PP. 225 - 26.

أن يسمع صوت الإمام الشيخ من الاعماق البعيدة فى القاعة الكبيرة وهو يتلو آيات من القرآن • فإذا ركع أو سجد تبعه الجميع كلهم كشخص واحد ، يركعون ويسجدون لله كأنما هو ماثل أمام أعينهم • وقد تأثر محمد أسد بذلك الى حد بعيد ، وأدهشه ما لاحظه من قرب المسلمين من ربهم ومن دينهم ، وعدم انفصال صلاتهم عن يوم عملهم ، الى حد جعله يتمنى أن يتمكن من الشعور بنفس الشعور « ••• فى تلك اللحظة أدركت مبلغ قرب هؤلاء القوم من ربهم ومن دينهم • ان صلاتهم لم تكن تبدو منفصلة عن يوم عملهم ، مستقلة عنه ، بل كانت قسما منه ، لم يقصد بها أن تساعدهم على نسيان الحياة ، بل على ذكرها عن طريق ذكر الله بطريقة أفضل • وقلت لصاحبى ونحن نغادر المسجد ما أغرب وأدهش أن تشعروا أن الله قريب منكم الى هذا الحد ، أود لو أستطيع أن أشعر بنفس هذا الشعور : فأجابنى : وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، يا أخى ؟ أليس الله كما يقول كتابنا الطاهر : أقرب اليكم من حبل الوريد •• » (٨٩) وهذا الباب الجديد الذى فتح أمام محمد أسد للدخول فى الإسلام ، هزه من أعماقه ، ودفعه وهو فى دمشق للمزيد من الاطلاع على الكتب عن الإسلام ، وإذ كانت عربيته لا تسمح له بقراءة القرآن فى لغته الأصلية ، فاضطر الى الرجوع الى ترجمة فرنسية وأخرى المانية لمعانيه ، الى جانب كتب المستشرقين، وايضاحات صديقه • وحصيلة هذه القراءات والأحاديث كانت ضخمة للغاية : فقد رفعت الغشاوة عن عينه ، وبدأ يميز عالما جديدا من الافكار كان يجهله قبل ذلك كلية : وظهر له ان الإسلام طريقة فى الحياة ومنهاجا للسلوك الشخصى والاجتماعى قائما على ذكر الله ، وليس دينا بالمعنى الشائع للكلمة ، ولا نظاما لاهوتيا • واكتشف محمد أسد ان القرآن لم يشر الى حاجة الناس الى (الخلاص) ، بالمعنى النصرانى ، كما لم يشر الى خطيئة أولى موروثة ، تقف بين الفرد ومصيره ، كما هو الحال فى النصرانية ، وليس هناك من أثر للثنائية فى اعتبار الطبيعة الانسانية ، فالروح والجسد يعتبران وحدة صحيحة

---

(٨٩) P. 127.

كاملة • وقد ارتـاع فى البداية لما رآه فى القرآن من جمـع بين الأمور الروحية وبين الكثير من وجوه الحياة الدنيوية التى كانت تبدو له تافهة ، ولكنه أدرك ، مع الزمن ، أنه مادام القرآن يعتبر ان الانسـان وحدة كاملة حقا من جسد وروح ، فليس هناك جانب من جوانب هذه الوحدة يمكن أن يعد تافها بحيث لا يقع داخل نطاق الدين • ومهما يكن من أمر فان القرآن يذكر دائما ان الحيـاة الدنيا ليست الا مرحـلة من طريق الانسان الى وجود أسمى ، ذو طبيعة روحية • والرخاء المادى مستحسن ومستحب ، ولكنه ليس غاية فى ذاته ، ومن هنا ينبغى كبح جماح شهوات الانسان عن طريق الوعى الأخلاقى • وهذا الوعى الأخلاقى ينبغى أن يكون متصلا بعلاقة الانسان بربه ، وبغيره من الناس • كما ينبغى أن لا يعنى باكمال الفرد فحسب ، روحيا ، وانما بخلق ظروف اجتمـاعية تبعث على النمو الروحى عند الناس جميعا بحيث يتمكنون من أن يحيوا حيـاة كاملة (٨٩) •

وقد اعتبر محمد أسد هذه المكتشفات القرآنية ، من الناحية العقلية والاخلاقية ، جديرة بالاحترام ، أكثر من أى شىء سمعه ، أو قرأه عن الإسلام من قبل • وظهر له أن معالجة القرآن لمشاكل الروح أعمق بكثير جدا من معالجة العهد القديم • الى جانب خلوه من محاباة شعب معين كما فعل العهد القديم • أما معالجة القرآن لمشاكل الجسد ، فقد كانت ايجابية الى درجة قوية ، بخلاف العهد الجديد • فالروح والجسد توأمان للحياة الانسانية التى أبدعها الله ، كلا فى نطاق حقه • وهنا أدرك محمد أسد أن هذه التعاليم هى المسئولة عن الامن العاطفى الذى أحس به طوال اقامته الطويلة مع العرب (٩٠) •

وقد بلغ تأثره بهذه المعانى والتوجيهات القرآنية ، وكذلك انطباعاته الشخصية عن العرب والمسلمين حدا جعله يشعر بصدمة حضارية بمجرد

---

(٨٩) PP. 128,147.

(٩٠) PP. 128-29.

عودته الى الغرب بعد انتهاء رحلته الأولى الى الشرق : فقد بدا الناس فى عينيه بشعين جدا ، وحركاتهم حادة خرقاء ، وفجأة عرف أنهم كانوا يعيشون فى عالم من الادعاء والتظاهر • وكان واضحا لديه أن اتصاله بالعرب هو الذى بدل نظرته الى الامور فى الغرب (٩١) •

وأصبحت هذه المقارنات بين الاسلام وما يحمله من مبادىء وتعاليم وبين النصرانية والغرب وما يمثلاه من عدم اتزان وجنوح وانفلات نغمة ثابتة عنده فهو يقول : « ••• وكما كنت قد اكتشفت منذ أشهر صلة بين الامن العاطفى عند العرب والدين الذى كانوا يدينون به ، كذلك بدأ يتضح لى أن افتقار أوروبا الى الوحدة الداخلية الذاتية ، وحالتها الأدبية والأخلاقية المضطربة ، ربما كانا ناتجين عن فقدانها ذلك الاتصال بمعتقدها الدينى الذى صاغ المدنية الغربية •• (٩٢) وفى موضع آخر ، فى سياق تعليقه على قصة هاروت وماروت نراه يتحدث مرة أخرى عن مفهوم الجسد والروح فى الاسلام ، وما بينهما من علاقات ، بحيث يستحيل أن تكون الدوافع الجسمانية نتيجة لفكرة الخطيئة الأولى المعروفة فى النصرانية (٩٣) • وحين استمع لبدوى أمى يتلو أبياتا من شعر المتنبى ، تعليقا على مجلس قضاء أمير حائل ، لم يجد ذلك أمرا يدعو للاستغراب ، وعدها ظاهرة عامة بين شعوب المسلمين كلهم ، وقد ساهد كثيرا من فقراء الفرس الذين لم يعرفوا فى حياتهم المدرسة يحملون فى ذاكرتهم عددا لا يحصى من أبيات شعر حافظ الشيرازى أو جامى أو الفردوسى ، على حين أنه استبعد أن يسمع فلاحا المانيا يستشهد بجوته ، أو متعهد شحن انجليزى يستشهد بالشاعر بليك أو شيللى لأنه على الرغم من انتشار الثقافة فى الغرب انتشارا واسعا ، فان الأوروبى العادى أو الأمريكى العادى لا يحظى بنصيب حقيقى من أنوار الثقافة الغربية الساطعة ، على حين أن جماهير غفيرة من المسلمين غير

---

(٩١) PP. 136-37.

(٩٢) P.139.

(٩٣) P. 149.

المثقفين ، وأحيـــانا الاميين أنفسهم ، مثـل هــذا البـــدوى ، تشارك يوميا ، وبصورة واعية ، فى مآثر ماضيهم الثقافية • ويرددونها بمتعة ظاهرة فى أحاديثهم اليومية •وعلى الرغم من أن هؤلاء المسلمين قد فقدوا ، الى حد كبير ، ذلك الابداع الذى جعل تراثهم الثقافى على هذا النحو من العـظمة ، فان لهــم حتى الآن ، اتصـــالا حيا بقمم هــذا التراث ••• »(٩٤)وحين يعرض لفكرة القضاء والقدر عند المسلمين، فانه يرفض سوء فهم الغربيين لها ، وعدهم اياها قدرية جبرية ، فهو يقول : « ••• هذا الاذعان فى الروح الاسلامية لثبات الماضى ، وعـدم امكان تبدله ــ التسليم بأن كل ما حدث كان لابد أن يحدث بهذه الطريقة عينها ، وانه لم يكن ممكنا أن يحـدث بأى طريقة أخرى ــ كثيرا ما يحسـبه الغربيون خطأ (قدرية) ملازمة للنظرة الاسلامية • ولكن اذعان المسلم للقدر يتعلق بالماضى وليس بالمستقبل : أنه ليس رفضــا للعمل والأمل والتحسين ، بل رفض لاعتبــار الواقع الماضى أى شىء ســوى شىء من صنع الله (٩٥) ورغم تعاطفنا مع محمد أسد فى الدفاع عن فكرة القضاء والقدر فى الاسلام فى مواجهة نظرة الغربيين ، فاننا لا نوافقه فى قصره هذا المفهوم الاسلامى على احداث الماضى فقط دون الحاضر والمستقبل لأن مفهوم قضاء الله وقــدره فى العقيدة الاسلامية كما ينســحب على الماضى ، فانه ينسحب كذلك على الحاضر والمستقبل ، (٩٦) دون الدخول فى دائرة القدرية الجبرية •

وفى رحلته الثانية الى الشرق ، ربيع عام ١٩٢٤ م • وفى القطار الذى استقله من بورســعيد الى القــاهرة ، اشترك معــه فى نفس الديوان تاجــر يونانى من الاسكندرية ، وعمــدة مصرى لا يعــرف القراءة ولا الكتابة ، وكان الحديث يدور حول بعض المبادىء الاجتماعية

---

(٩٤) PP. 152-53.

(٩٥) PP. 58-9.

(٩٦) الجرجانى : شرح المواقف ، الموقف الخامس ، ص ٢٩٤ وما بعدها •

فى الاسلام ، وبالتحديد حول زواج المسلمة من غير المسلم ، وزواج المسلم من غير المسلمة • وكان التاجر اليونانى لا يعترف بعدالة حكم الاسلام فى هذه المسألة ، ولكن العمدة المصرى الأمى ، أجاب بأن الاسلام يؤمن بأن الأنبياء السابقين على محمد ﷺ رسل صدق من عند الله تعالى ، على حين أن اليهودى ، أو النصرانى ، لا يؤمن بنبوة محمد ﷺ ورسالته ، وهكذا ، فاذا تزوجت فتاة يهودية أو نصرانية من رجل مسلم فان بامكانها أن تطمئن الى ان أحدا من الشخصيات المقدسة فى نظرها لن يذكر بين أفراد عائلتها الجديدة الا بكل احترام وتبجيل ، فى حين انه اذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم ، فان من تعتبره رسول الله خليق بأن يساء اليه ويذم ، ربما من قبل أولادها أنفسهم ، اذ يتبع الاولاد عادة دين أبيهم ، فليس من العدل تعريضها لمثل هذا الايلام والاذلال • (٩٧) •

وقد اهتز محمد أسد من أعماقه لهذا الحوار ، واعتبر نتيجته بابا جديدا الى الاسلام ينفتح أمامه ، على نحو ما كان نتيجة الحوار بينه وبين الحاج معلم الوكالة فى القدس : « ••• ولم يجد اليونانى ما يجيب به عن هذا الاهزة حرج من كتفيه ، أما أنا فقد بدا لى أن العمدة البسيط الأمى ، بذلك الذوق السليم الذى يتميز به أبناء جنسه الى حد بعيد ، قد أصاب الكبد من مسألة على جانب عظيم من الأهمية • ومرة أخرى ، كما حدث لى مع ذلك الحاج المسن فى القدس ، شعرت أن بابا جديدا الى الاسلام كان يفتح لى ••• » (٩٧) •

ومهما يكن من أمر ، فان عرض محمد أسد لوجهة نظر الاسلام ، على لسان العمدة ، فى هذه القضية الحساسة واختياره لهذا التبرير الانسانى غير العنصرى ، ليدل على عظمة الاسلام ، كما يبين نقاء فطرة هذا العمدة المجهول وذوقه السليم ، كما يشير الى صدق دخيلة محمد أسد ، واتزانه الفكرى والروحى ، وقد أخذ فريق علماء المسلمين فى المملكة

---

(٩٧) PP. 186-87.

العربية السـعودية بنفس وجهة النظر هذه ، فى حـوارهم مع فريق كبار رجال القانون والفكر فى أوروبا ، فى الندوة العلمية حول (الاسـلام وحقوق الانسان) التى عقدت فى الرياض ، فى ٢٢ مارس ١٩٧٢ م. (٩٨) ولايعنى ذلك : أن علماء المسلمين لم يكونوا يعرفون حكمة الاسلام من ذلك الحكم حتى نبههم محمـد أسـد ، فهذه الجوانب تعتبر من المعلومات الاولية العامة التى لا يجهلها مسلم عادى ، فضلا عن علماء الاسـلام ، وانما المقصود هو أن محمد أسد قد أدرك أنه وفق الى طرق الابواب الصحيحة الى الاسلام ، وكشف له عن بعض جوانبه .

وفى اليوم الثالث من وصول محمد أسـد الى القاهرة ، ثبتت رؤيـة هـلال رمضان ، وكالعادة انبهر بمظاهـر احتفال المصريين بالشـهر المبارك ، ووصف لنا مظاهر هذا الاحتفـال على النحو الذى نعرفه ، ولكنه لم يهمـل الغوص وراء الهدف من الصيام فى الاسلام ، وحين نجـح فى معرفة ذلك ، عد هذه المعرفة بداية تمييزه للخطوط الكبرى فى نظـرة الاسلام الاخلاقية « ... ان الغاية من شـهر الصيام هذا كما علمت ، غاية مزدوجة : أن على الفرد أولا ، أن يمتنع عن تناول الطعام والشراب حتى يشعر فى جسمه هو بما يشعر به الفقـراء والجائعـون ، وبهـذا تثبت المسئولية الاجتماعية فى الوعـى البشرى كفرض دينى . وأما الغاية الثانية من الصيام فى رمضـان ، فهى ضبط النفس ، وهى ناحية من نواحى أخـلاق الفرد التى تشدد عليها التعاليم الاسلامية جميعا ... فى هذين العنصرين ، الاخوة الانسانية وضبط النفس ، بدأت أميز الخطوط الكبرى فى نظرة الاسلام الاخلاقية ... » (٩٩) . وفى خلال اقامته فى القاهرة كذلك ، وجريا وراء المزيد من المعرفة عن حقائق الاسلام ــ تعرف محمد أسد على الكثير من الشخصيات العلمية فى قاهرة مطلع القرن العشرين ، ولكنه توقف طويلا عند المرحوم الإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغى ،

---

(٩٨) انظر : الاسلام وحقوق لانسان ، ندوة علمية ، ص ٥٤ ــ ٥٦ ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

(٩٩) PP. 186- 87.

وهو يصفه بأنه « من أشهر علماء الاسلام فى ذلك الوقت ، وألمع علماء الجامع الأزهر بما لا يقبل الشك (وقدر له أن يصبح شيخه بعد ذلك ببضع سنوات) ••• » (١٠٠) وكان بينهما حوار طويل تحدث فيه الشيخ المراغى عن المسلمين ، كما تحدث عن الأزهر وعلمائه : أما عن المسلمين فهو يرى أنهم فى العهود الحديثة قد قصروا للغاية عن المثل العليا للاسلام وأن شيئا لا يمكن أن يكون أكثر خطأ من قياس القوى الكامنة فى رسالة محمد ، وامكانياتها — بمقياس حياة المسلمين وتفكيرهم فى الأيام الحاضرة •(١٠٠)ولاشك أن وجهة النظر هذه قد اقتنع بها محمد أسد ، لأنه رددها كثيرا فى مؤلفاته ، وان كان ينسبها الى نفسه • أما عن الأزهر ، فى ذلك الوقت ، فان الشيخ المراغى يرى أن علماءه يقرأون الكتب التى كتبت منذ قرون عديدة ، ويردد ونها دون هضم ، لم يعودوا يفكرون لانفسهم ، بل تركوا ذلك للقدماء ، وسار تلاميذهم على نفس الدرب ، فهم وان كانوا يصغون اليهم الا أنهم لا يتعلمون الا أن يقرأوا ويرددوا ، جيلا بعد جيل • وانقطع الأزهر منذ عدة قرون عن اخراج عظام المفكرين ، وعلماء الدين ، والمؤرخين ، والفلاسفة ، والرياضيين ، الذين كان يخرجهم من قبل ، وقد يظهر مفكر مستقل من الازهريين بين الحين والحين ، حتى فى الأزمنة الحديثة ، ولكن الأزهر ، بصورة عامة ، أصيب بالعقم الذى يشكو منه العالم الاسلامى كله اليوم ••• فلو أردنا تغيير الحال الى الاحسن ، فلابد من تشجيع التفكير بدلا من نزعة تقليد التفكير الحالية • (١٠١)

وحديث الشيخ المراغى هذا عن الأزهر أعان محمد أسد على ادراك سبب من أعمق أسباب الانحطاط الاجتماعى والثقافى فى العالم الاسلامى كله : فالعقم الاجتماعى للحاضر الاسلامى ، وتحمل العدد الكبير من المسلمين للفقر الذى يعيشون فيه ، وأنواع الأذى الاجتماعى الكثيرة التى يتعرضون لها برضا ساكن وتراخ تام ، وعدم احساس ، كل أولئك

---

(١٠٠) P. 188.

(١٠١) PP. 189-90.

ليس إلا انعكاسا للتحجر العلمى ، والركود العقلى فى الأزهر (١٠٢)

ويتوقف محمد أسد قليلا ليخبرنا أن الغربيين لديهم صورة مشوهة تماما عن الاسلام ، قوامها عدد كبير من الآراء الخاطئة عن الاسلام نفسه، ويعززها بمثل هذه الأدلة المحسوسة عن انحطاط المسلمين : وهم يعتقدون أن الاسلام هو سبب سقوط المسلمين ، لأنه مزيج غير مقدس من الغلو الصحراوى والخرافة والقدرية الخرساء ، ومن هنا فانه يحول بين اتباعه، وبين الاشتراك فى تقــدم الإنســانية نحو النظم الاجتماعية العليا • وهكذا يعتقد معظم الغربيين أنه كلما عجل بتحرير المسلمين من تعلقهم بالعقائد والعادات الاجتماعية الاسلامية ، وحملوا على اتباع الطريقة الغربية فى الحياة ، كان ذلك افضل لهم ولسائر العالم • (١٠٢) ومحمد أسد يرفض هذه النظرة الغربية للاســلام ، ويرى أن تأخر المسلمين لم يكن نتيجة لأى نقص فى الاســلام ، بل لفشلهم هم أنفســهم فى أن يرتفعوا بحياتهم الى مستواه : فالاســلام تلازم متناغم بين العقل والدافع الحسى ، بين الحاجة الروحية والمطلب الاجتماعى ، وهو وعى مكثف بالله ، يعبر عن نفســه بتقبل عاقل للطبيعة ، التى هى من صــنع الله (١٠٢) • والاسلام هو الذى حمل المسلمين الأوائل الى أعلى القمم الثقافية عن طريق توجيه طاقاتهم كلها نحو التفكير الواعى، كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة خلق الله ، وبالتالى لفهم ارادة الله ••• وهكذا فان تعطش المسلمين الأوائل الى المعرفة لم يضطرهم ، كما اضطر غير المسلمين فى أنحاء العالم ، الى الدخول فى صراع مؤلم ضــد الايمان لتأكيد ذاته ، لانه فى الحقيقة انبثق من ذلك الايمان وحده • وهنا يورد محمد أسد العــديد من الأحاديث النبوية الشريفة وآيات القرآن التى تبين مكانة العلم فى الاسلام ، وتحث على تحصيله ، كما تشير الى مجالى العلوم المختلفة ، وكيف فهم المسلمون هذه الاشارات ، فاندفعوا يسهمون فى تحقيق ارادة

---

(١٠٢) P. 190.

الله فى الأرض ، واظهار عظمة خلقه ، وهكذا ازدهر الطب الاسلامى ، وعلم الكائنات الحية (البيولوجيا) والفلك ، والرياضة ، والكيمياء ، والفيزياء ، وعلم وظائف الأعضاء وبقية العلوم ، وقد تركوا آثارا خالدة فى هذه المجالات ، وهم بانجازاتهم هذه لم يفعلوا أكثر من اتباع أوامر القرآن واشاراته ، واطاعة توجيهات الرسول ﷺ فى العديد من أحاديثه • (١٠٣) والخلاصة أن الاسلام قد أعطى حافزا ضخما للانجازات الثقافية التى تشكل صفحة من أنصع صفحات التاريخ الانسانى : لقد أعطى هذا الحافز بتشجيعه للعقل والعمل والحياة ، ورفضه للغموض والركود والاماتة وقهر الجسد لخلاص النفس • ومن هنا فبمجرد انطلاق الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية ، دخل الناس فيه أفواجا ، لان سكان سوريا وشمالى أفريقيا ، وسكان أسبانيا ، وهم الذين ولدوا ونشأوا على نصرانية القديس بولس والقديس أغسطين التى تحتقر الدنيا — هؤلاء السكان جميعا رأوا أنفسهم فجأة أمام دين ينكر طقس (الخطيئة الأولى) ، ويؤكد على الكرامة الفطرية للحياة الأرضية ، وهكذا التحقوا فى جماعات متزايدة على الدوام بالعقيدة الجديدة ، التى علمتهم أن الانسان هو خليفة الله فى الأرض • وفى رأى محمد أسد : أن هذا هو التفسير لانتصار الاسلام المدهش فى فجر تاريخه العظيم ، وليس أسطورة (التسليم بحد السيف) (١٠٤) •

ونتيجة ذلك كله : هو أن الاسلام هو الذى جعل المسلمين عظماء ، ولم يكن المسلمون هم الذين جعلوا الاسلام عظيما ، ومع ذلك ، فانهم بمجرد أن أصبح الايمان عادة ، وليس منهجا فى الحياة يتبع بوعى وادراك ، حتى خبت تلك القوى الدافعة الخلاقة التى كانت من وراء مدنيتهم ، وأفسحت المجال تدريجيا للاسترخاء والعقم والانحطاط الثقافى (١٠٥) •

---

(١٠٣) PP. 191-92.

(١٠٤) PP. 192- 93.

(١٠٥) P. 193.

وهذا التحليل الشامل الذى قدمه محمد أسد ، لتفسير ظواهر انحلال المجتمعات الاسلامية والمسلمين عموما بعد الازدهار والتقدم الحضارى ، وبهذا السياق الذى أورده به ، فانه يحمل الأزهر وعلماءه مسئولية ضياع المسلمين ، وجمود الفكر الاسلامى المعاصر ، ورغم ثقل هذا الاتجاه وشدته ، الا أنه صحيح ، وواضح انه اتجاه المرحوم الإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغى • وهو كذلك اتجاه المرحوم طيب الذكر الدكتور محمد البهى، ولا غرابة فى ذلك، فان الدكتور البهى كان من المتصلين عن قرب بالشيخ المراغى ، ومن المعجبين بفكره وشخصيته (١٠٦) ، وإذا كان الشيخ المراغى قد عبر عن مكنونات نفسه لمحمد أسد ، الذى لم يكن قد أسلم بعد ، فمن غير المعقول أن يكون فكره غير معروف للدكتور البهى، وهما على هذا القدر من المحبة والود• (١٠٦) • ومن غير هذا وذاك، فالدكتور البهى بسعة أفقه وفكره اللماح ، الى جانب أنه دارس متخصص لفكر الشيخ محمد عبده ، ولمحاولاته فى اصلاح الازهر ، كل أولئك هيأ الدكتور البهى للدور التاريخى الذى قام به فى اصلاح الأزهر وجامعته الجديدة بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ لكى يواجه مسئولياته التاريخية • ويقول الدكتور البهى فى ذلك : (••• الأزهر فى رأيى هو قمة المؤسسات الإسلامية فى العالم الاسلامى التى كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الالحادية ، وكانت تستطيع أيضا أن تقدم للحياة الاسلامية فى مصر ووراء مصر ، أكبر العون فى حل المشكلات التى تدور فى حياة الأسرة الاسلامية ، والاقتصاد الاسلامى ، والتوجيه الاسلامى • وبذلك كان يمكن أن تكون هناك قوى فكرية روحية ثالثة فى الشعوب الاسلامية ، تواجه القوتين العالميتين الرئيسيتين اليوم : الصليبية الغربية ، والشيوعية الدولية • ولا عوض عن الأزهر ، وكل يوم يمر عليه فى أزمته يزيد فى ضعف قيمته ، ويقلل من الانتفاع به فى تكوين تلك القوة الثالثة التى يجب أن يكون لها شأن اليوم ••• اصلاح الأزهر فكرة ،

---

(١٠٦) د• محمد البهى : حياتى فى رحاب الازهر ، ٤٤ ٤٨ — ٥٢ القاهرة ١٩٨٣ •

وتنفيذ رسالة ، هى فهم الاسلام ، وحسن عرضه ، والملاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل • وهى رسالة فريدة ، لا يمكن لمؤسسة تعليمية أخرى أن تنهض بها ••• ان الاسلام فى غده يتأثر قوة وضعفا ، بقوة الأزهر وضعفه ، اليوم وبعد اليوم •• وقد جاء صدور القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ إيذانا بتطور جديد فى تاريخ الأزهر ••» (١٠٧) وهكذا فهم الدكتور البهى فكرة الشيخ المراغى ، وعرض محمد أسد ، وقبل هذا وذاك روح الاسلام العلمية ، وتاريخ الأزهر فى أوجه ، فكان ان تفاعل ذلك كله ، مضافا اليه عبقرية الدكتور البهى ، فكان مشروع الجامعة الجديدة وهذا الموضوع حرى ببحث مستقل ، ليس مكانه هنا •

والمرحلة التالية مباشرة ، فى رحلة محمد أسد الى الاسلام ، تتميز بالمزيد من الادراكات الجديدة التى كان يكتسبها حول الاسلام ، الى جانب تقدمه المستمر فى اللغة العربية بحيث أنه شعر ، ربما للمرة الأولى ، أنه امتلك ما يشبه المفتاح الى التفكير الاسلامى ، ولم يعد هذا العالم غريبا عنه أو بعيدا • واكتشف أنه لو تمكن من الانفصال عن عاداته الماضية الخاصة فى التفكير ، وأصبح محايدا ، فان العالم الاسلامى سيصبح قابلا للفهم والادراك : « ••• ولقد خطر لى أنه لو كان باستطاعة المرء أن يتحقق بدرجة معينة من الانفصال عن عاداته الماضية الخاصة فى التفكير ، وأن يعتقد بأن من الممكن أن لا تكون وحدها الصحيحة اذن لأصبح العالم الاسلامى ، الذى كان غريبا فى وقت مضى ، قابلا للفهم والادراك ••• » (١٠٨) •

وهكذا تسلل الاسلام الى نفس محمد أسد رويدا رويدا ، دون صوت أو جلبة ، وهو يشبه ذلك باللص الذى يدخل خلسة الى البيت ،

---

(١٠٧) د• محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ ومواضع اخرى ، القاهرة ١٩٧٥ م • وكذلك : الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر ، مشكلات الحكم التوجيه ، مواضع مختلفة • القاهرة د • ت •

(١٠٨) P. 193.

ولكنه يختلف عن اللص فى أنه دخل ليبقى هناك الى الأبد وهو يقص ذلك فيما بعد بقوله « ... ذلك أن الاسلام ... قد دخل الى نفسى كما يدخل اللص الى البيت ليلا ، وخلسة ، دون صـــوت أو جلبة ، الا أنه يختلف عن اللص من حيث أنه دخل ليبقى هناك الى الابد . ولكنى أنفقت سنين عديدة قبل أن اكتشف أننى سأصبح مسلما ... » (١٠٩) .

وفى سفره فى أواسط أفغانستان عبر وديان جبـــال هندوكوش فى طريقه من هراة الى كابول ، فى أواخر عام ١٩٢٥ بعد حوالى عامين من السفر الى ايران وأفغانستان ، فقد جواده حدوة ، فكان عليه أن يقصد الى حداد أقرب قرية — ده زانجى — وهناك التقى بحاكم المنطقة ، الذى استضاف محمد أسد ورفيقيه لمدة يومين . وذات مساء ، وهم جلوس على المائدة ، تحـــدث محمد أسد عن فقدان المســـلمين ثقتهم فى أنفســـهم ، واستسلامهم لأفكار الغرب وعاداته ، واستنكر عدم استطاعة المسلمين العودة الى دينهم التقدمى المنير ، كما استنكر أن يعتبر المسلمون كمال أتاتورك رمزا للانبعاث الاســـلامى ، فى حين أنه ينكر على الاســـلام كل قيمة ... الخ وهكذا اندفع محمد أسد يعرض قضايا قصور المسلمين عن مثل الاسلام ومبادئه . وهنا همس الحاكم الافغانى بعد أن تبين حقيقة ضيفه : « ... ولكن .. أنت مسلم .. » فأجاب محمد أسد : « كلا ، اننى لست بمسلم ، ولكنى رأيت فى الاسلام قدرا كبيرا جدا من الجمال بحيث أننى أستشيط غضبا أحيانا لرؤيتكم تضيعونه . سامحنى اذا كنت قد تكلمت بجفاء ، فأنا لم أتكلم كعدو ... » فاجاب الحاكم : « .. كلا .. ان الأمر هو كما قلت . أنت مسلم ، ولكنك لا تعرف ذلك ، لماذا لا تقول الآن ، وفى هـــذا المكان : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) فتصـــبح مسلما فعلا ، كما أنت الآن فى صميمك : قلها يا أخى ، قلها يا أخى ، قلها الآن ، أذهب معك ، غدا الى كابول ، واخذك الى الأمير فيستقبلك بذراعين مفتوحين كواحد منا ، سوف يهبك البيوت والحدائق والمواشى وسنحبك

---

(١٠٩) P. 198.

كلنا ، قلها يا أخى ••• » وكان جواب محمد أسد : « انى اذا قلتها يوما ، فسأقولها لأنى مطمئن اليها ، لا من أجل بيوت الأمير وحدائقه » فأجاب الحاكم : « ولكنك تعرف الآن عن الاسلام ، بأكثر مما يعرفه معظمنا عنه ، أى شىء لم تفهمه بعد ؟ » فاجاب محمد أسد : « ليست المسألة مسألة فهم ، بل اقتناع : اقتناعى بأن القرآن هو حقا كلام الله ، وليس مجرد خلق عبقرى أبدعه بشرى عظيم •• » (١١٠) •

ورغم أن محمد أسد لم يسلم ، كما دعاه الحاكم الافغانى لانه كان فى حاجة الى الإقتناع بأن القرآن كلام الله وليس كلام بشر ، إلا انه اهتز من حديثه لمدة طويلة بعد ذلك ، وهو يصف ذلك بقوله : « ••• ولكن كلمات صديقى الافغانى لم تفارقنى ، فعلا ، طيلة الأشهر التى تلت ••• » (١١٠) وكان من جراء ذلك ، ان ازدادت دورات تأمل محمد أسد فى الاسلام ، وعظمة الاسلام ، وسمو مبادئه : فهو يراه مرة بناء هندسيا كاملا ، تتمم بعض عناصره البعض الآخر ، دون زيادة أو نقصان، مع اتزان واستقرار ، يجعلان المرء يشعر « ••• بأن كل ما فى نظرات الاسلام وفروضه يقعان فىموقعهما الصحيح» (١١١) وهه الرؤيةأصبحت تتيسر لمحمد أسد بطريقة تلقائية ، لا تعمل فيها ، أو كما يصفها هو « بنوع من الارتشاح العقلى Mental Osmosis (١١١) وهو يرى الاسلام كذلك ، مرة أخرى ، شاملا « ••• الحياة من جميع وجوهها : المعنوية والجسدية ، الفردية والمجتمعية •••) (١١٢) ويراه مرة ثالثة • « •• قد افتتح فصلا جديدا فى تطور الانسان ، أول مثال لمجتمع أيديولوجى مفتوح، فى مقابلمجتمعات الماضىالمقفلة والمحدودة عرقيا وجغرافيا(١١٣) فآلهة مصر القديمة لم تكن تتجاوز فى تفكيرها حدود وادى النيل وسكانه •

---

(١١٠) PP. 297-98.

(١١١) P. 301.

(١١٢) P. 302.

(١١٣) P. 303.

واله بنى اسرائيل ، فى دولة العبرانيين القديمة ، كان الها لبنى اسرائيل فحسب ، وقصرت المسيحية دعوتها العالمية على الدائرة الروحية فقط . أما الاسلام ، فقد تخطى كل هذه الحواجز والسدود ، وأحيا مدنية لا مكان فيها لقومية ، أو طبقية ، أو كنيسة ، أو كهانة ، أو نبل وراثى ، وأهم مميزات تلك المدنية ، التى تميزها عن غيرها فى تاريخ البشرية ، هى نشأتها عن طريق موافقة ارادية من هؤلاء الناس الذين كان يعنيهم أمرها هنا ، وهم المسلمون ، وليس عن طريق الضغط على المصالح المتضاربة ، ومقاومة هذه المصالح ، فهو عقد اجتماعى خالص فى صميم الأشياء ، وليس مجازا صاغته الأجيال التالية من أصحاب السطوة والنفوذ دفاعا عن امتيازاتهم ، بل على أنه المصدر التاريخى الحقيقى للمدنية الاسلامية . قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .... فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (١١٤) وقد عرف محمد أسد أن هذا (الفوز العظيم) هو المثل الوحيد على عقد اجتماعى حقيقى سجله التاريخ (١١٥) ولاحظ محمد أسد أن المسلمين لم يلتزموا بهذا العقد الاجتماعى الا خلال مدة قصيرة جدا ، أقل من قرن منذ وفاة الرسول ﷺ ، ومع ذلك فان امكانيات الاسلام ، لا علاقة لها بفشل المسلمين فى العمل بها ، والمهم هو أن ذلك المثل الأعلى ما زال متاحا لكل راغب فى اتباع طريقه ، وما كان ممكنا فى وقت ما ، يمكن أن يصبح ممكنا حقا فى وقت آخر . وقد تأكد محمد أسد بأن المجتمع الحديث فى الغرب بحاجة الى أساس ايديولوجى لعقد اجتماعى جديد ، الى ايمان يوازن بين حاجات الروح والجسد ، الى الإسلام (١١٦) .

وفى يوم من أيام شهر سبتمبر ، عام ١٩٢٦ ، كان محمد أسد راكبا هو وزوجته قطار برلين تحت الارض ، فى الدرجة الاولى ، فلاحظ محمد

---

(١١٤) التوبة ، آية ١١١ .

(١١٥) PP. 303-4.

(١١٦) P. 305.

أسد الرجل الذى كان يجلس أمامه ، وكان مظهره يدل على النعمة والثراء ولكن وجهه لا يشير الى سعادته ، بل شقاوته الشديدة ، وبؤسه الحاد ، وهكذا بقية الركاب ، ووافقته زوجته على أنهم جميعا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم • وتأكد محمد أسد من أنهم لم يكونوا يعلمون بحقيقة حالهم هذا ، والا لما استمروا فى تبديد حياتهم ، دون ايمان بالحقائق الملزمة ، ودون أى هدف يزيد عن الرغبة فى (رفع مستوى معيشتهم) ، وفى حيازة المزيد من الملذات المادية والممتلكات والقوة • وحين عاد محمد أسد الى منزله ، وكان قد ترك نسخة مفتوحة من القرآن على مكتبه ، كان يقرأ فيها من قبل ، ورفعه ليضعه جانبا ، ولكن ما أن هم بذلك حتى وقعت عينه مصادفة على الصفحة المفتوحة أمامه ، وقرأ قوله تعالى : (ألهاكم التكاثر • حتى زرتم المقابر • كلا سوف تعلمون • ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين • لترون الجحيم • ثم لترونها عين اليقين • ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) • واهتز المصحف فى يده وهو يكتشف أن ذلك كان جوابا قاطعا — وتفسيرا واضحا — أزال كل شك فى نفسه ، وتيقن محمد أسد أن القرآن كتاب الله ووحيه ، فبرغم ثلاثة عشر قرنا مضت على نزوله ، فانه توقع بوضوح شيئا لم يكن بالامكان أن يصبح حقيقة الا فى عصرنا هذا المعقد الآلى • « لقد عرف الناس التكاثر فى جميع العصور •• ولكنه لم ينته قط من قبل الى أن يكون مجرد اشتياق الى امتلاك الأشياء ، ويصبح هاجسا يحجب رؤية كل شىء آخر ، توق لايقاوم الى التملك والعمل والمشقة أكثر فأكثر : اليوم أكثر من أمس ، وغدا أكثر من اليوم : عفريت يركب على أعناق الناس ، يسوق قلوبهم بسوط الى الامام نحو أهداف تتلألأ عن بعد ، ولكنها تنحل الى لا شيئية زرية خسيسة بمجرد الوصول اليها ، ويغريهم نحو أهداف لا تنتهى وكل منها يخطف الأبصار ، ويغرى القلوب ، ولكنها تنتهى بدورها ، الى لا شىء ، وهكذا سلسلة متصلة من الجوع النهم الى أهداف جديدة ، لا تثمر شيئا ، ينهش فى قلب الانسان : (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ••) لقد عرفت أن هذا لم يكن مجرد حكمة انسانية من انسان عاش فى الماضى البعيد فى جزيرة العرب النائية ، فمهما كان مثل هذا الانسان على مثل هذا القدر من الحكمة ، فانه

لم يكن ليستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذى يتميز به هـذا القـرن العشرون : لقد كان ينطق لى ، من القرآن ، صـوت أعظم من صـوت محمد .. (١١٧) وهكذا اقتنع محمد أسد بأن القرآن وحى من الله ، وليس من انشـاء محمد ﷺ ، لأنه تنبأ وصـور بدقة سمات المادية فى القرن العشرين .

وقد بادر محمد أسد فور بلوغه هذه المرحلة بالسعى الى صـديق له وهو مسلم هندى : كان فى ذلك الحين رئيسا للجالية الاسلامية الصغيرة فى برلين ، وأعلمه برغبته فى اعتناق الاسلام ، فمد يده اليمنى آخذا بيده اليمنى ، وبحضور شاهدين قال : أشهد أن لا اله الا الله : وعندئذ قـال صديقه المسلم « لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد Leopold وكلمة ليو Leo اليونانية معناها أسد ، اذن ، سندعوك من الآن فصاعدا : محمد أسد ... » (١١٨) وهكذا أصبح محمد أسد مسلما ، قلبا وقالبا . ونلاحظ أنه أورد تفصيلات عديدة — رأينا طرفا منها فيما سبق — لرحلته الى الاسلام ، وربما لم يترك حتى خطرة من خطرات نفسـه دون أن يحدثنا عنها ، وهذا جديد فى ميدان السـير الذاتية للشـخصيات التى أسلمت . وفى رأيى أن محمد أسـد فعل ذلك لكى ينقل الى الآخرين ، حيثيات اقتناعه بعظمة الاسلام ، ومراحل هذا الاقتناع ، وكيفيته ، ومن ثم اعتناقه للاسلام ، بالاضـافة الى تسجيل ذكريات حياته ، وخطرات نفسه ، وحديث ذاته ، فى رحلة بحثه عن هذه الذات نفسها . والمقصود بـ (الآخرين) فى العبارة السابقة ، هو أولا : نحن المسلمين الذين أحبهم محمد أسد وأحبوه ، واعتنق الاسلام عن اقتناع وحب ، وقرأ كثيرا من تراث الاسلام وتاريخه ، وعرف دور اليهود فى الكيد للاسلام والمسلمين عبر تاريخهم الطويل ، رغم سماحة الاسلام مع اتباع الديانات الأخرى ، ومحمد أسد ، كيهودى غربى قبل اسلامه ، فهم هذه الحساسيات من هذا الجانب ، ولم يعتب عليها ، لأنها ليست مجرد مشاعر انفعالية ، وانما

---

(١١٧) P. 310.
(١١٨) P. 311.

وقائع وأحداث تاريخية • كما فهم حساسيات المسلمين من الغربيين ، وقد استعمروا معظم بلاد الاسلام ، وأنزلوا بشعوبها أشد أنواع الظلم والاذلال — فلم يعتب عليها كذلك • بل لم يكن يضايقه أن يلاحظ علامات الاستفهام في نظرات بعض المسلمين ، تتسائل عن اسلامه فكان يجيب ببساطة وهدوء ، ويقدم باختصار قصة إسلامه (١١٩)• وقد توقف الأمير سعود آل سعود في قبول وشساية من بعضهم ، تتهم محمد أسـد بأنه جاسوس انجليزى ، وأن دخوله في الاسلام ادعاء ، وتأكد من اسلامه عن طريق رؤيا رآه فيها يؤذن للصلاة ، ويذكر إسم الله • وقد وافق الملك عبد العزيز على تفسير هذه الرؤيا بهذا المعنى (١٢٠) • فكان لابد لمحمد أسد أن يقدم — في أقرب وقت فيما بعد — سجلا حافلا بوقائع وتفاصيل دخوله في الاسلام ، وقد فعل ، ليرضينا ويقنعنا بأنه واحد منا ، وليس غريبا ، ولا أجنبيا ، جاء يتسكع ، أو يتجسس علينا في ثوب مسلم ، كما فعل عشرات من الغربيين قبل ذلك (١٢١) •

والمقصود بـ (الآخرين) كذلك هو ، ثانيا : الغربيون من مواطنى محمد أسد ، ومن معارفه من غير مواطنيه ، أو الغربيون عموما ، لأنه من غير المألوف لدى الغربيين ، أن يروا واحدا منهم ، ينفصل عنهم ، ويدخل في محيط جديد تماما ، بعيد عن خلفية الغرب وثقافته ، خاصة اذا كان هذا المحيط لا يحظى باحترامهم ، وينظر اليه على أنه محيط دين متخلف جامد ••• الخ ، وعلى الأقل : أحط كثيرا من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية • وقد عانى محمد أسد ، ولابد أن يعانى ، الكثير من جراء ذلك ، وقد ذكر طرفا من ذلك في مطلع كتابه (الطريق الى مكة) في فصـل عنون له بـ (حكاية قصة) ، كما أورد اشارات عديدة ، حول ذلك ، في ثنايا كل الكتاب • وهذا الجانب لا يهمنا هنا ، لأنه يتعلق بالفترة التالية

---

(١١٩) انظر مثلا الحـوار بينه وبين منصور P. 198.

(١٢٠) PP. 167-68.

(١٢١) على سبيل المثال : ادوارد لين بول ، وجولدزيهر ، وسـنوك هرجرونيه •• وغيرهم كثيرون •

لاعتناقه الاسلام ، أما ما يهمنا الآن ، فهو أن نعرف أن محمد أسد ، سجل تفاصيل حياته ورحلته الى الاســلام ، لكى يجيب على تساؤلات الغربيين هذه ، ولكى يشركهم فى بعض تجاربه وخبراته ، وأهم من هذا وذاك ، كما يذكر بنفســه : أن يسهم فى رفع ذلك النقاب السميك الذى يفصل ما بين الاسلام وثقافته ، وبين العقل الغربى ، وبذلك يستطيع ـ عن طريق نقل خبراته الشخصية الى القراء الغربيين ــ أن يساعد فى اقامة تفاهم مشترك بين العالمين الاسلامى والغربى • وهو يرى أنه مؤهل لهذا العمل أفضل من أى شخص آخر ، لأنه جمع بين اللغتين الثقافيتين للاســلام وللغــرب معــا (١٢٢) •

والآن ، اذا حاولنا أن نقوم عمل محمد أسد فى حدود ما عرضناه له من آراء وتفاصيل ، فى الفقرات السابقة فبوسعنا القول أنه نجح فى اقناع الأطراف كلها بإسلامه ، كما نجح فى أن يشرك الجميع فى خبراته وتجاربه ولكن الوقت مازال مبكرا جدا لتقويم نتائج اسهامه وهو ضخم ــ فى رفع النقاب الفاصل بين الاسلام وثقافته ، وبين العقل الغربى ، وثمرة ذلك من اقامة تفاهم مشترك بين العالمين الاسلامى والغربى • وقد عبر محمد أســد فى مواضــع كثيرة عن انصراف الغربيين عن الاهتمام بالاسلام على النحو الذى نريد (١٢٣) ، وسنرى ذلك بمزيد تفصيل بعد •

ومهما يكن من أمر ، فهناك جانبان لم يذكرهما محمد أسد ــ على الأقــل مباشرة ــ ولكنهما أفادانا ، ومن حقه علينــا أن نذكرهما له ، وننسبهما اليه ، أولهما : هو العرض الجيد الحديث والعصرى لمبــادىء الاسلام ــ برغم الأخطاء الطفيفة بين الحين والآخر ــ على النحو الذى يصلح لمخاطبة الأوروبيين ، وغير المسلمين عموما ، لأنه عرض للمبــادىء يصاحبه تبريرها العقلى الفلسفى ، والعاطفى الوجدانى الجمالى • وهكذا

---

(١٢٢) P. 81.

(١٢٣) CF. P. 307. وانظر موقف والده من اسـلامه •

يقدم لنا مبادىء الاسلام وأفكاره فى صورة هندسية ، متآلفة الأجزاء ، متكاملة الجوانب ، متناسق بعضها مع البعض الآخر كما ذكر من قبل • وهذا لا شك مفيد للغاية فى حقل الدعــوة للاســلام فى الغرب ، ولغير المسلمين عموما ، وهو كذلك مفيد أيضــا لعوام المسلمين الذين يكتفون بتلقن العقائد والمبادىء الاسلامية ، دون تفاصيل • ثانيهما : أنه كشف لنا أسرار العداء الدفين الذى تتميز به نفوس الغربيين ضد الاسلام ، خاصة آثار الجانب النفسى من الحروب الصليبية ، وتحليلها على النحو الذى سنراه على الفور فى ثنايا حديثنا عن المرحلة الثانية فى تجربة محمد أسد مع الاسلام ، وهى مرحلة تتميز بالعقلانية الفلسفية ، والتمحيص الفكرى الصرف — بعد أن انتهينا من مرحلة المعايشة والبحث عن الذات — وهذه المرحلة الثانية تشمل تأملاته وأنظاره فى الاسلام وحده ، أو مع مقارنته بالديانات والمذاهب الفكرية الأخرى ، أو مع مقارنته بالغرب بما فيه من ديانات ومذاهب ، وأخيرا أنظاره حول مستقبل الاسلام •

المرحلة الثانية : محمد أسد وتأملاته العقلية حول الاســلام : —

يرى محمد أسد أن الاسلام ليس عقيدة صوفية ، أو فلسفة عقلية ، وانما هو نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه ، وعمله الاسمى ، هو : التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية فى الحياة الانسانية • ويؤكد الاســلام تلازمهما ، وعدم افتراقهما ، لأنه الأساس الطبيعى للحياة • ويمثل محمد أسد لهذا المبدأ ببعض العبادات الاسلامية • التى تجمع بين الخشوع وبين الحركات الجسمانية ، كالصلاة، والطواف حول الكعبة • أما فيما يتعلق بالصلاة ، فانه يسفه رأى أعداء الاسلام الذين يتخذون من شكل الصلاة الاسلامية برهانا على زعمهم بأن الاسلام دين رسوم ومظاهر ، ويرى أن أهل الأديان الأخرى الذين تعودوا الفصــل بين الأمور الروحية والأمور الجســدية ، لا يفهمون بسهولة أن الاسلام يجمع بين هذين العنصرين ، فى تعايش متجانس معا ،

بحيث يعبران عن نفسيهما أوضح التعبير(١٢٤) • أما فيما يتعلق بالطواف حول الكعبة فانه يعنى أن أفكارنا الخاشعة ، وحياتنا العملية ، وأعمالنا ، وجهودنا — كل أولئك ينبغى أن تتمثل فى نفسها فكرة الله ووحدانيته على أنها مركز لها ، كقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (١٢٥) وهو هنا يجعل من الكعبة رمزا لوحدانية الله ، كما يجعل عملية الطواف رمزا لجهود الحياة الانسانية • وقد سبق لمحمد أسد أن تحدث عن الصوم ، وعرضه من زاوية مماثلة ، من هنا يمكننا القول أنه يرى العبادات الاسلامية كلها تمثل مبدأ التوفيق بين الروح والمادة وهنا ينبه الى أن العبادة فى الاسلام ليست قاصرة فقط على العبادات المعروفة ، ولكنها تشمل كذلك كل حياة الانسان العملية وأعماله العادية اذا أديت بوعى ، وعلى أنها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمى الذى أبدعه الله ، وهذا مثل أعلى ، ولكن تحقيقه فى الوجود الواقع من مقاصد الدين ، وهو المعنى الذى يعطيه لهذه الحياة نفسها • ولكن تحقيق هذا المقصد يظل مستحيلا مادمنا نقسم حياتنا الى قسمين : حياتنا الروحية وحياتنا المادية • واذن ، فلابد من اقتران هاتان الحياتان فى وعينا ، وفى أعمالنا ، ليصبحا كلا واحدا متسقا • وينبغى لفكرتنا عن وحدانية الله أن تتجلى فى سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة فى حياتنا (١٢٦) •

ومن نتائج هذا الاتجاه : هو امكان بلوغ الانسان الكمال فى اطار حياته الدنيوية الفردية • وهذه خصيصة يمتاز بها الاسلام من بين سائر النظم الدينية : وهو لا يؤجل هذا الكمال الى ما بعد اماتة الشهوات الجسدية — كما تفعل النصرانية • ولا هو يعد بسلسلة متلاحقة من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة ، كما هى الحال فى الهندوكية • ولا هو

---

(١٢٤) الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٢٢ •

(١٢٥) الذاريات ، آية ٥٦ •

(١٢٦) المرجع السابق ، ص ٢٣ — ٢٤ •

يعتبر أن الكمال والنجاة لا يتمان الا بعد انعــدام النفس الجزئية ، وانفصــام علاقاتها الشعورية من العالم ، كما ترى البوذية • كلا : أن الاسلام يؤكد فى اعلانه أن الانســان يستطيع بلوغ الكمال فى حياته الدنيا الفردية ، عن طريق الاستفادة التامة من جميع وجــوه الامكان الدنيوى فى حياته هو ••• والكمال المقصود هنا : هو تحسين الصفات الايجابية التى سبق لها أن وجدت فى الفرد ، على نحو يوقظ قوى الفطرة الكامنة فيــه (١٢٧) •

واذ كانت مظاهر الحياة مختلفة ، فكذلك تختلف الصفات الفطرية فى الانسان بين حال وحال • ومن هنا كان محالا أن يلتزم الناس جميعا بالسعى نحو نوع واحــد من الكمال • ولو جعل للكمال مقياس معلوم محدد لاقتضى الأمر أن يتخلى الناس عن فروقهم الشــخصية ، أو أن يتبدلوا بها غيرها ، أو يميتوها • واذا حدث هذا فقد يفضى الى خــرق القانون الالهى الذى يسيطر على الحياة فى هذا العالم ، والذى يقوم على التفاوت بين الأفراد (١٢٨) • من هنا فان الاسلام يترك للانســان مجالا واسعا فى حياته الشخصية والاجتماعية كيما تستطيع تلك الصفات المختلفة ، من العواطف والميول النفســية ، أن تجد سبيلها فى التطــور الايجابى ، المتفق مع استعدادها الذاتى : فمن الممكن أن يكون المــرء زاهدا ، أو من الذين يتمتعون باللذات الحسية الى أقصى حد ، وهو بعد فى دائرة الشرع • وقد يكون أعرابيــا يطوف الصحــراء ، غير مدخر طعاما لغده ، أو يكون تاجرا غنيا ، تحيط به بضاعته • ومادام الانسان خاضعا لما يفرضه الله عليه باخلاص وتقى ، فانه بعد ذلك حر فى أن يكيف حياته الشخصية على الشكل الذى توجهه اليه طبيعته • على أن شكل هذه الحياة الشخصية ليس بحال مقيدا بقياس ما • فالمرء حر فى تخير ما يشاء من وجوه الامكان المشروعة ، والتى لا حد لها تقف عنده • ان واجب

---

(١٢٧) نفســه ، ص ٢٥ •

(١٢٨) نفســه ، ص ٢٦ •

الانســان هو أن يستخرج من نفسه أحسن ما فيها ، كيما يشرف هبة الحياة ، التى أنعم بها عليه ، كيما يســاعد اخوانه من بنى آدم بما ملكت يداه من وســائل رقيه هو ، فى جهودهم الروحيــة والاجتماعية والمــادية (١٢٩) •

وحرية الاختيار فى الاسلام تقوم على مبدأ أن الأصــل فى طبيعة الانسان هو الخير ، فالانسان خلق طاهرا وتاما ، قال تعالى (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين آمنــوا وعملوا الصالحات) (١٣٠) • فهذه الآية الكريمة تدل على أن الانسان فى الاصل خير طاهر ، وتدل كذلك على أن الجحود وترك الأعمال الصالحة يهدمان هذا الكمال الأصلى • على أن الانسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصى ، أو يستعيده ، فيما لو فقده ، اذا أدرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى ، ثم تقيد بشرائع الله (١٣١) • واذن ، فالاسلام لا يرى الشر أساسيا أبدا ، ولا أصيلا أيضا ، ولكنه مما يكتســبه الانسان فى حياته ، فهو ، اذن ، من اساءة التصرف بتلك الصفات الايجابية الغريزية التى وهبها الله كل انســان • وهذا بخــلاف النصرانية : وطقس الخطيئة الأصلية ، و الهندوكية : وسلسلة التناسخ ، لتطهير الدنس الأصلى فى الانسان (١٠٢) ••• الخ ما ذكرناه فيما سبق •

ومن هنا ، ليس فى الاســلام كذلك غفران شامل ، أو جماعى ، للانسانية ، لأن النجاة والخسران أمران شخصيان : فكل مسلم رهين بما كسب ، فهو يحمل فى نفسه جميع وجوه الامكان للنجاة الروحية ،

---

(١٢٩) نفســه ، ص ٢٦ — ٢٧ •
(١٣٠) التــين ، آية ٤ — ٥ •
(١٣١) نفســه ، ص ٢٧ •
(١٣٢) نفســه ، ص ٢٧ — ٢٨ •

أو للخيبة الروحية ، قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما كسبت) (١٣٣)، وفى موضع آخــر (وأن ليس للانســـان الا ما ســـعى) (١٣٤) • وهــكذا •• (١٣٥) •

والاســـلام اذا كان يرفض مشـــاركة النصرانية فى اعتبار الحياة الدنيا واديا مظلما للاحزان ، تعترك فيه قوتان : الشر المتمثل فى الشيطان ، والخير المتمثل فى المسيح ، أى ان عالم المادة شيطانى فى أساسه ، بينما عالم الروح الهى خير ، وان كل ما فى الطبيعة الانسانية من المادة — آى الجسد — فانما هو نتيجة مباشرة لزلة آدم حينما سمع نصيحة ابليس • وللنجاة من ذلك على الانســـان أن ينصرف عن عالم اللحم الى العالم الروحى المقبل ، حيث تحل الخطيئة البشرية بتضحية المسيح ، أى بفداء المسيح — اذا كان الاسلام لا يشارك النصرانية فى رفض الحياة الدنيا هذا ، فانه كذلك يعلمنا ألا نعلق على الحياة أهمية مغالى فيها ، على نحو ما تفعل المدنية الغربية الحاضرة — بصرف النظر عن نصرانيتها — فى عبادة الحياة بنفس الطريقة التى يعبد بها النهم طعامه : انه يلتهمـــه ، ولكنه لا يحترمه • أما الاســـلام فانه ينظر الى الحياة الدنيا بهـــدوء واحترام• أنه لايعبد الحياة ، ولكنه كذلك لايحتقرها ، وانما ينظر اليهاعلى أنها دار ممر ضرورية فى طريقنا الى وجود أسمى • ومادامت ضرورية ، فلا يحق لانسان أن يحتقرها ، ولا أن يبخسها شيئا من حقها • من هنا كان لحياة الانسان قيمة عظمى — لأنها جزء ايجابى من سنة الله — ولكن هذه القيمة لا ينبغى أن تتعدى قيمة الواسطة الى غاية فقط (١٣٦) •

فليس فى الاسلام مجال للمبالغة فى قيمة الحياة الدنيا — على نحو ما يفعل الغرب الحديث ، حين يقول (مملكتى فى هذا العالم وحده) •

---

(١٣٣) البقـرة . آية ٢٨٦ •
(١٣٤) النجم ، آية ٣٩ •
(١٣٥) نفســه ، ص ٢٩ •
(١٣٦) المرجــع الســابق ، ص ٢٩ — ٣٠ •

ولا لاحتقار الحياة — على نحو ما تفعل النصرانية ، حين تقول : (ان مملكتى ليست من هذا العالم) • وانما الاســـلام يتخير فى ذلك طريقا وسطا ، ومن هنا يعلمنا القرآن الكريم أن ندعو الله فنقول : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخر حسنة ، وقنا عذاب النار) (١٣٧) • وهكذا، فاحترام هذا العالم ، وما فيه من متاع ، لا يقف عقبة فى طريق جهودنا الروحية (١٣٨) • ومن هذا المنطلق ، نرى الاسلام يقود الانسان نحو الشعور بالتبعة الأدبية فى كل ما يعمل ، سواء أكان ذلك جليلا أم تافها ، كما لا يسمح بالفصـــل بين المطالب الأدبية والمطالب العملية فى الوجود الواقع ، وليس أمام الانســـان الا خيار واحـــد ، هو الخيار بين الحق والباطل ، وليس ثمة منزلة بين المنزلتين •

واذن ، ينبغى على كل مسلم أن يعتبر نفسه مسؤولا شخصيا عن نشر كل أنواع السعادة حوله ، واقرار الحق ، وازهاق الباطل ، فى كل زمان ومكان ، ومصداق ذلك قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر) (١٣٩) •

ومحمد أسد يجعل من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — أو بتعبيره هو (المســؤلية الشـــخصية عن نشر السعادة ، واقرار الحق ، وازهاق الباطل) — التبرير الأدبى ، أى الأخلاقى ، للفتوحات الاسلامية الأولى ، أو ما يسميه الغربيون : التوسع الاستعمارى الاسلامى • وهو يرفض اتهامات الغربيين لهذه الفتوحات ، وتشويههم لأهدافها ودوافعها ، ويقول : أن الاستعمار الاسلامى — اذا لم يكن بد من استعمال هذا التعبير — لم يكن من دافعه أو أهدافه فى يوم ما : حب السيطرة ، أو الأنانية الاقتصادية ، أو القومية ، والطمع فى زيادة الرفاهية الخاصة على حساب شـــخص آخر — كما هو حال الدول الاستعمارية قديما وحديثا — ولم

---

(١٣٧) البقــرة ، آية ٢٠١ •

(١٣٨) نفســه ص ، ٣٠ •

(١٣٩) آل عمــران ، آية ١١٠ •

يقصد منه فى يوم من الأيام : اكراه غير المؤمنين على الدخول فى الاسلام ، وانما كان هدف هذه الفتوحات — وهو هدف الاسلام على الدوام — بناء اطار عالمى لأحسن ما يمكن من التطور الروحى للانسان .

وهكذا ، فان الأخلاق فى الاسلام تحيا وتموت مع السعى الانسانى للعمل على نصرتها فى الأرض . أما الفصل الأفلاطونى بين الخير والشر ، من غير حث على زيادة الخير ، ومحو الشر ، فانه فسق عظيم فى نفسه (١٤٠) .

هذه المبادىء تمثل ما يراه محمد أسد (سبيل الاسلام) وهى السمات العامة للفلسفة الدينية للاسلام ، وهى بايجاز :

— نهج فى الحياة يقوم على الجمع بين الوجهة الروحية والمادية فى الحياة الانسانية ، ونماذج من ذلك فى دائرة العبادات ، بالمعنى الخاص والعام .

— مفهوم الكمال ، وامكان بلوغه فى هذه الحياة الدنيا ، وارتباط ذلك بتفاوت الأفراد ، فى الشخصية والملكات الفردية ، وأثر ذلك على ازدهار الحياة .

— حرية الاختيار ، وارتباط ذلك بمفهوم الخير والشر ، والمسؤلية الفردية .

— قيمة الحياة الدنيا : واسطة لا غاية .

— مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأثره على دور المسلمين فى كل زمان ومكان .

ومن المؤكد أن الفقرة الحالية الخاصة بسبيل الاسلام كانت فى الخلفية الفكرية للاستاذ أبى الحسن الندوى ، وهو بصدد تحرير كتابه

---

(١٤٠) نفسه ، ص ٣١ .

المشهور (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وربما كانت من الأفكار التى ألهمته فكرة الكتاب نفسه ، وقد اقتبس نصا طويلا من الفصل الحالى ، فى كتاب محمد أسد (الاسلام على مفترق الطرق) من صفحة ٢٩ حتى نهاية ٣١ ، وهو يتناول قيمة الحياة الدنيا فى نظر الاسلام ، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأثره فى الفتوحات الاسلامية ، وهذا شىء كثير ، وهناك اقتباسات أخرى ، من مواضع أخرى سنشير اليها فى حينها ، ولكنى أكتفى بالقول هنا أن أبا الحسن الندوى واحد من كثيرين من المفكرين المسلمين المعاصرين الذين اعتمدوا كتابات محمد أسد ، خاصة الفصل الحالى ، فى كثير مما كتبه عن الاسلام ، على النحو الذى سنراه بعد • وعلينا الآن أن ننظر فى علاقة الاسلام بالغرب ، وهو موضوع الفقرة التالية •

محمد أسد ورؤيته للعلاقة بين الاسلام والغرب :

عرضنا فى فقرة سابقة موقف محمد أسد من النصرانية والغرب ، ورأينا أنه يعتبر أوروبا فى ضياع ، وخواء روحى ، جريا وراء المنفعة المادية الصرفة ، أما جذور ذلك الضياع الروحى فيرجع الى : الإرث الذى ورثه الغرب من المدنية الرومانية ، وهو إرث مادى نفعى فى جملته وتفاصيله • والسبب الثانى لضياع الغرب ، هو : ثورة أوروبا على الكنيسة النصرانية ، وما استتبع ذلك من انصراف عن الدين عموما ، والاكتفاء بمبدأ المنفعة المادية ، وأسلوبها فى جميع المجالات ، خاصة فى مجال الروابط الأسرية ، وفى مجال العفاف الجنسى فى العلاقة بين الرجل والمرأة • وقد رأينا محمد أسد يرفض النصرانية والغرب ، كما رفض اليهودية من قبل ، من أجل ما أصابه من خيبة رجاء فيهما ، بسبب أوجه القصور العديدة التى اكتشفها •

واذا كان الأمر كذلك ، وكان عرضه للاسلام على النحو الذى رأيناه، وقد اقتنع بعظمة الاسلام ، وسمو مبادئه ، وتكاملها ، فلن يكون غريبا أن نراه يرفض بشدة أى علاقة بين الاسلام والغرب ، من شأنها ذوبان

الاسلام فى المدنية الغربية ، بأى صـــورة من الصور ، وخاصة التقليد والمحــاكاة .

ومحمد أسد يرى أن هناك أسباب عديدة تحمل المسلمين على ألا يقلدوا المدنية الغربية : أولهـا فقدان التجـانس الروحى والاجتماعى والثقافى ، لأن الحضارة الاســلامية أتم ما عرفه التاريخ من أشــكال الدولة الالهية . فالاعتبار الدينى ، أو وجهة النظر الدينية ، يسود هنـا كل شىء ، ويظهر فى أساس كل شىء . أما الحضارة الغربية ، فيسيطر على أوجه نشاطها وجهودها اعتبارات المنفعة العملية والتوسع الفعال فقط . فهما ، اذا ، يختلفان تماما فى نظرتهما للأمور (١٤١) . واذا كان اتجاه الحضارة الغربية المعاصرة هذا موروثا عن المدنية الرومانية القديمة. كما سبق أن أشرنا ، فان الامبراطورية الاسلامية لا تشترك فى شىء مع الامبراطورية الرومانية سوى فى انهما امتدتا فوق أراضى شـاسعة ، وشعوب متباينة ، ولكن كلتا الامبراطوريتين خضعتا لقوى توجههماتوجيها خاصا ، وكان عليهما أن تحققا أهداف تاريخية متباينة :

فمن حيث النشأة : اقتضى الامبراطورية الرومانية ألف عام حتى نمت الى اتساعها الجغرافى الكامل وحتى بلغت نضجها السياسى . بينما الامبراطورية الاسلامية بزغت ، ثم بلغت أشدها فى مدة وجيزة تبلغ نحو ثمانين عـاما (١٤٢) .

ومن حيث الانهيـار : فقد تم انقراض الامبراطورية الرومانية بصورة نهائية على يد هجرات الهون والقوط ، فى خلال قرن واحد ، ولم يبق ســوى بضعة معالم من الأدب والبنـاء على حين أن الامبراطورية الاسلامية احتاجت الى أكثر من ألف ومائتى عام من الانحلال البطىء حتى يتم الانهيار السياسى نهائيا ، ذلك الانهيار الذى يتمثل فى الغاء الخلافة

---

(١٤١) الاسـلام على مفترق الطـرق ، ص ٣٢ ، ٥٢ .

(١٤٢) نفســه : ص ٣٥ ــ ٣٦ .

العثمانية ، والذى تبعته العلامات الأولى فقط للتفكك الذى نشهده اليوم فى البناء الاجتماعى الاسلامى • وهذا يجعلنا نستنتج أن القوة الباطنة ، والتماسك الاجتماعى فى العالم الاسلامى ، كانا أرقى من كل شىء خبره العالم من طرق التنظيم الاجتماعى • ويرجع ذلك الى تعاليم القرآن الكريم الدينية التى خلقت هذا الأساس المتين ، وسنة الرسول — ﷺ — التى أصبحت اطارا من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعى العظيم (١٤٣)•

وهناك فارق آخر ، وهو : على حين لم يكن فى الامبراطورية الاسلامية قوم مميزون ، وبينما اخضعت القوة غيها لنشر فكرة الحقيقة الدينية السامية ، كانت الفكرة التى تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هى الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده ، وفى سبيل الترفيه عن فئة مميزة ، لم ير الرومان فى عنفهم سوءا ، ولا فى ظلمهم انحطاطا • ولم يكن العدل الرومانى الشهير الاعدلا للرومان وحدهم (١٤٤) •

ولا شك أن أساس هذا الاتجاه فى الامبراطورية الرومانية هو الادراك المادى الخالص للحياة وللحضارة ، بعيدا عن جميع القيم الروحية والدينية ، على نحو ما فصلنا فى فقرة (النصرانية والغرب) •

واذا كانت الحضارة الاسلامية لا تتفق مع اتجاه الحضارة الرومانية ، وهى أساس الغرب الحديث • وكان الاسلام كذلك لا يتفق مع اتجاه النصرانية الحديثة ، ونظرتها الى الحياة الدنيا ، وهى الدين الشكلى للغرب — فمعنى ذلك أن التجانس الروحى مفقود تماما بين الاسلام والغرب • وهذا من ثمة ، دافع ، وحافز وسبب كاف يحفز المسلمين الى الابتعاد عن محاكاة الغرب •

---

(١٤٣) نفسه . ص ٣٦ — ٣٧ •

(١٤٤) نفسه ، ص ٣٨ •

وهناك سبب ، ثان يضاف الى الأول ، وهو شبح الحروب الصليبية كعنصر رئيسى فى التجارب التاريخية ، التى أصطبغت بعداوة غربية للاسلام ، من جانب الغرب : لقد ورث الأوربيون من الاغريق والرومان نظرتهم الى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون ، أما من كان أجنبيا عنهم ، خاصة سكان شرق البحر المتوسط ، فقد أطلقوا عليهم لفظ « البرابرة » • ومنذ ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع ، بل لقد أصبح ذلك احدى الميزات البارزة فى المدنية الغربية (١٤٥) • على أن هذا الأرث لا يكفى وحده لاظهار وتبرير ما يكنه الأوروبيون من كره نحو الاسلام•فموقف الأوروبى من الاسلام ليس مجرد كره فى غير مبالاة فحسب ، كما هو الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات، وانما هو كره عميق الجذور، يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، الذى لا يقف عند حد العقل ، ولكنه يصطبغ كذلك بصبغة عاطفية قوية : فقد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، أو غيرهما ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بها كلها بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير • الا أنها حالما تتجه الى الاسلام فان توازنها يختل ، ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب ، وأبرز مثال على ذلك هو المستشرقون الأوروبيون وكتاباتهم عن الاسلام (١٤٦) ، فهم لا يدرسون الاسلام على أنه مجرد موضوع من موضوعات البحث العلمى ، ولكن على أنه متهم يقف أمام قضاته ، فى محاكمة تذكرنا بمحاكمات دواوين التفتيش التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، وهى محاكمات ليس تحرى العدل من أهدافها • ونتيجة هذه المحاكمة هى صورة مشوهة للاسلام ، ولكل ما يتعلق بالاسلام فى جميع مؤلفات المستشرقين الأوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم أو لغاتهم الأوروبية • ويبدو أنهم يبتهجون بخبث حينما تعرض لهم فرصة ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد • وبما أن هؤلاء المستشرقين ليسوا سلالة

---

(١٤٥) نفسه ، ص ٥٢ •

(١٤٦) نفسه ، ص ٥٢ ـ ٥٣ •

خاصة ، وانما هم طلائع مدنيتهم ، وبيئتهم الاجتماعية ، فأننا نستنتج من ذلك أن فى العقل الأوروبى على العموم — لسبب ما — ميــلا عن الاسلام ، بما هو دين ، وبما هو ثقافة وعلينا هنا أن نبحث عن السبب الحقيقى وراء ذلك : إن تبرير ذلك بالأرث العنصرى الموروث عن الاغريق والرومان غير كاف ، على نحو ما رأينا فى نظرة الغرب للأديان والمذاهب الأخــرى غير الاســلام •

ومحمد أسد يرى أن نعود بذاكرتنا شطر الماضى ، وخصوصا الى تاريخ العصور الوسطى ، والى الحروب الصليبية بالتحديد • وهو يقرر : أن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول ، والمقام الأهم ، موقف أوروبا من الاسلام لبضعة قرون تالية • لقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة ، لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوروبا ، وكانت لاتزال فى طور تشكيل الخصائص الثقافية الخاصة بها ، والشعوب كالأفراد ، اذا تعرضت لمؤثرات عنيفة فى أوائل الطفولة ، فان تلك المؤثرات تستمر ظــاهرا أو باطنا ، مــدى الحياة التالية ، محفورة حفرا عميقا ، حتى أنه لا يمكن للتجــارب العقلية ، فى الدور المتأخر للحياة ، والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة — أن تمحوها الا بصعوبة ، ثم يندر أن تزول آثارهــا تماما (١٤٧) • وهكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فإنها أحدثت أثرا من أعمق الآثار وابقاها فى نفسية الشعب الأوروبى • ولقد صادف فى ذلك الحين ، وللمرة الأولى فى تاريخ الغرب ، أن أدركت أوروبا فى نفسها وحدة، ولكنها وحدة فى وجه العالم الاســلامى • ويمكننا القول ، دون مبالغة تذكر ، أن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية • فقد كان قبل هذه الحروب جنسيات عديدة أوروبية ، تختلف فى مشربها ومنهلها ، ولكن فى أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة المدنية الغربية ، وأصبحت هدفا واحدا تسعى اليه جميع الشعوب الأوروبية على الســواء • واتخذت الولادة الجديدة للمدنية للغربية من عدائها للاســلام أبا روحيا • وهكذا اضطر

---

(١٤٧) نفســه ، ص ٥٣ — ٥٥ •

الاسلام الى أن يحتمل نار الحروب الصليبية فى أشكال كثيرة ، وتحت أقنعة متعددة سنين متطاولة فيما بعد (١٤٨) • أن الفظائع المروعة التى اقترفها الفرسان الصليبيون الاتقياء ، وما خلفوه من تخريب وانحطاط فى بلاد الاســـــلام التى اجتاحوها ، ثم خسروها ـ كل هذه هى التى أنبتت البذور السامة لعداوة طويلة الأمد ، ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب ، ولولا ذلك لما كان ثمة ضرورة الى مثل هذا الشعور • على أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شىء شرا ثقافيا • لقد شوه قادة أوروبا تعاليم الاسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب وبذلك نشأ تسميم العقل الأوروبى• واستقرت ، فى ذلك الحين ، فى عقول الأوروبيين تلك الفكرة المضحكة من أن الاسلام دين عنف حيوانى وشهوانية ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تزكية للقلوب ، وتطهيرا لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت • وظهر كذلك سب الرســـول محمد ـ ﷺ ـ بقولهم « كلبى » ! تلاعبا بالألفاظ (١٤٩) • وكان لحمية الصليبيين الجاهلية ذيول فى أماكن كثيرة فى أوروبا ، مثل حرب نصارى الأندلس ، وطرد المسلمين من الأندلس ، الذى استغرق قرونا عديدة حتى تم • ولما طال أمد هذا القتال أخذ الشعور ضـــد الاســـلام فى أوروبا ينشب جذوره ، ثم يثبت ، وعندما انتهى باستئصال شأفة العهد الاسلامى فى أسبانيا ، تجاوبت أصداء الفرح فى أوروبا على أثر ذلك • ولكن قبل أن يخفت صداها حدث حادث ثالث ، عظيم الأهمية ، زاد فى فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الاسلام ، ذلك هو : سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك : لقد كانت أوروبا ترى بقية من الزهو الاغريقى والرومانى القديم فى بيزنطة (القسطنطينية) ، وكانت تعتبرها حصن أوروبا ضد « برابرة » آسيا ، ولكن بسقوطها فتح باب أوروبا على مصراعيه للسيل الاسلامى• وفيما تلى من قرون ، امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوروبا للاســـلام قضــية ذات أهمية ثقافية

---

(١٤٨) نفسه ، ٥٦ ـ ٥٧ •

(١٤٩) المرجع السابق ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ، وانظر حاشية ص ٥٨ •

فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضا ، وزاد ذلك فى اشتداد تلك العداوة ••• ومع تقدم الزمن نمت تلك البغضاء ، ثم استحالت عادة ، وأغرب من هذا كله : أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى (١٥٠) •

وحين جاء عهد الاصلاح الدينى ، وانقسمت أوروبا شيعا ، يقاتل بعضها البعض الآخر ، ظل العداء للاسلام عاما فيها كلها • وحتى حين جاء بعد زمن فتور الشعور الدينى فقد ظل العداء للاسلام مستمرا • ولعل من النماذج الصارخة على ذلك هو الفيلسوف والكاتب الفرنسى فولتير ، وقد كان من ألد أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر، ولكنه كان فى الوقت نفســه مغاليا فى بغضــه للاســلام ولرســـول الاســلام (١٥١) •

وحين حان الوقت ، لعلماء الغرب ، دراســة الثقافات الأجنبية ، واجهوها بشىء من العطف ، ولكنهم واجهوا الاسلام باحتقار تقليدى ، أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية • فاحتقار الاسلام هو جزء أساسى من التفكير الأوروبى • والواقع أن المستشرقين الأول فى العصور الحديثة كانوا من المبشرين النصارى الذين يعملون فى البلاد الاسلامية ، وقد تعمدوا تقديم صورة مشوهة للاسلام وتاريخه ليضمنوا التــأثير فى مــوقف الأوروبيين من المسلمين • ورغم تحــرر الاستشراق من نفوذ التبشير ، ولم يبق له عذر من حمية دينية جاهلية تسىء توجيهه ، الا أن هذا الالتواء العقلى فى الدراسة قد استمر • وهذا يعنى أن تحامل المستشرقين على الاسلام ليس الا غريزة موروثة وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية ، بكل ما لهــا من ذيول فى عقول الأوروبيين الأول (١٥٢) • وقد يتســاءل البعض ، فيقول : كيف يتفق أن مثل هذا العداء والنفور والكره القديم — وقد كان

---

(١٥٠) نفســه ، ص ٥٨ — ٦٠ •
(١٥١) نفســه ، ص ٦٠ •
(١٥٢) نفســه ، ص ٦٠ — ٦١ •

دينيا فى أساسه ، وممكنا فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة — يستمر فى أوروبا فى زمن لا يمثل الشعور الدينى فيه الا قضية من قضايا المـاضى ؟

والجواب على ذلك من علم النفس ، هو : أن الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة — والتى كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة — تتحدى بقوتها كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الانسان . وهذه حال الأوروبيين مع الاسلام ، فعلى الرغم من أن الشعور الدينى ، الذى كان السبب فى النفور من الاسلام ، قد أخلى مكانه فى هذه الاثناء لنظرة على الحياة أكثر مادية ، فان النفور القديم نفسه ، قد بقى عنصرا من عناصر الوعى الباطنى فى عقول الأوروبيين ، وقد يختلف فى درجته من شخص لآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه . ان روح الحروب الصليبية مازال يتسكع فوق أوروبا ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الاسلامى موقفا يحمل آثارا واضحة لذلك الشبح المستميت فى القتال (١٥٣) .

وهذا العرض التحليلى الدقيق ، والمقنع ، لأسباب كراهية الغرب للاسلام أخذ به العديد من رجال الفكر الاسلامى المعاصر : فالدكتور محمد البهى بدأ فى مقدمة الطبعة الأولى لكتابه (الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) بالحديث عن آثار الحروب الصليبية على الغرب . كما اقتبس كل النص تقريبا الخاص بأثر الحملة الصليبية فى تشويه الاسلام ودور المستشرقين كذلك . (١٥٤) أما أبو الحسن الندوى فقد نقل فى كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وصف محمد

---

(١٥٣) المرجع السابق ، ٦١ .

(١٥٤) د . محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص : مقدمة الطبعة الاولى ، ١٨٧ — ١٨٩ .

أسد للخصائص السلوكية للامبراطورية الرومانية (١٥٥) ، كما نقل فى نفس الكتاب ، وصف محمد أســد لمادية الغرب ، وأماكن هذه الديانة المادية الجــديدة (١٥٦) •

نتــائج كراهية الغرب للاســلام :

ومهما يكن من أمر ، فان محمد أسد لم يتوقف عند هذا الحد من العرض ، وانما سار بنا الى مواجهة نتائج كراهية الغرب للاسلام :

ومن أهم هذه النتائج : هى رفض ادعاءات بعض الدعاة المسلمين فى الغرب ، من أن عداوة أوروبا للاسلام قد أخذت فى الزوال تدريجيــا فى أيامنا هذه ، على نحو يجعل أوروبا تبدى دلائل من الميل نحو الاسلام من حيث هو تعاليم دينية واجتماعية • ورفض ما يعتقده كثير من المسلمين أن هذا الانقلاب الاجماعى فى أوروبا أصبح قريبــا •

ومحمد أسد يرى أن تفاؤل هؤلاء الدعاة المسلمين ، لا أساس له من الصحة ، كما يرى أن أوروبا لم تكن يوما أبعد عن الاســلام منها اليوم ، وقد تكون عداوتها النشطة نحو الاسلام آخذة الآن فى إلميــلان ولكن لا ينبغى أن يفسر ذلك على أنه بسبب احترامها لتعاليم الاسلام ، وانما الحقيقة أنه بسبب الضعف الثقافى المتزايد فى العالم الاسلامى ، وتفككه بحيث لم يعد مصدر خوف أو رعب للغرب • واذا كان هذا الشعور العدائى للغرب قد أصبح أقل بروزا ونشاطا ، فان هذا لا يسمح لنا أن نقفز الى الاستنتاج بأن الغرب قد اقترب ضمنا من الاســلام ، وانما أقصى ما يدل عليه هو قلة إكترائه به •••• وهو يرى ، الى جانب ذلك ، أن العالم الغربى اليوم لا يزال تائها تماما فى الاعتقاد أن الرفاهية وحدها هى الهدف الذى يستحق أن يكدح الانسان اليه •

---

(١٥٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٦٤ ، القــاهرة ، ١٩٦٤ م •

(١٥٦) نفســه ، ص ١٨١ – ١٨٢ •

كما يرى أن مادية الغرب وجحوده للتوجيه الدينى فى التفكير يزيدان كل يوم قوة ، ولا ينقصان ، كما يظن بعض المسلمين المتفائلين ٠

ولن يغير من هـذا الحكم إعتنـاق بعض الأوروبيين والأمريكيين للاسلام ، لأن دخول أفراد قلائل فى الاسلام لا يدل قطعا على أن الاسلام قد بدأ يؤثر فى الحياة الغربية على نطاق واسع ، والا لاحتج دعاة بقيـة الديانات والمذاهب ، فى الغرب الحديث ، بنفس الحجة ٠

ويرى محمد أسـد أن الفيصل فى ذلك هو أن نوازن بين عدد من يعتنقون الاسلام فى الغرب وبين العديد من الأوروبيين الذين ينضمون كل يوم الى صفوف المذاهب الاجتماعية المادية : كالماركسية والفاشية ونتيجة هـذه الموازنة ستعرفنـا بصورة قاطعة ميل المدنية الحديثـة الحقيقى (١٥٧) ٠

أما متى يتقبل الغرب الدعوة الى الاسلام ؟ يجيب محمد أسد على ذلك بصورة غير قاطعة : أنه يرى أن الأمر يتطلب نشـوب حرب عالمية جديدة لا يعرف أحـد مدى اتسـاعها ، ولا هول فظائعها ، أو حـدوث اضطراب اجتماعى واقتصـادى غير عادى — كل ذلك قد يوقف الغرور المادى لدى الغربيين ، وحينئذ سيرجع العقل الأوروبى الى البحث عن الحقيقة الروحية بذلة واخلاص ، وهنا يمكن للدعوة الاسلامية فى الغرب أن تنجح ولكن مثل هذا التبدل لا يزال فى علم الغيب (١٥٨) ٠

ومحمد أسد يعتبر الموقف سخيفا : أن يحلم المسلمون بانتشار نور الاسلام على البلاد المترامية ، بينما الشباب المسلم فى جوارهم القريب يقعدون عن قضـيتهم ، ويفرون عن آمالهم ٠ وأن ينام المسـلمون على تفاؤل خطر خداع ، بأن النفوذ الاسلامى فى طريقه الآن الى التغلب على روح أوروبا ، بينما الحقيقة ، على العكس من ذلك ، فالنفوذ الغربى هو

---

(١٥٧) الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٢ — ٦٦ ٠
(١٥٨) نفسـه ، ص ٦٦ ٠

اليوم على أتم قوته فى العالم الإسلامى ، بحيث أنه يزلزل تلك المجتمعات الاسلامية ، ويقوضها فى كل مكان (١٥٩) • ويسأل محمد أسد : اذا كان الأمر كذلك، وكان الاسلام والمدنية الغربية لايمكن أن يتفقا، لأنهما يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماما • فكيف نربى أحداث المسلمين على أسس غربية ، وكيف نتوقع أن تظل تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبيه ، وعلى مقتضياتها — خالصة من شوائب النفوذ المعادى للاسلام ؟ •

خطورة تربية أولاد المسلمين على النظـام التعليمى الغربى :

وهذا التساؤل هو بداية مناقشة تربية أولاد المسلمين من ناحية ، وتقليد المسلمين للغرب من ناحية أخرى : ومحمد أسد يرى أن تربية أبناء المسلمين على النظام الغربى سيضعف من ثقتهم بأنفسهم على أنهم هم ممثلوا الحضارة الالهية ، بل سيجعلهم يقفون موقفا عدائيا من دينهم ، وليس السبب فى ذلك أن العلوم الغربية التى درسوها قد جاءت بدليل معقول على فساد حقيقة التعاليم الدينية ، بل لان ذلك الجو الفكرى فى المدنية الغربية الحديثة يناهض الدين الى حد بعيد بحيث أنه أصبح عبئا ثقيلا على القوى الدينية الكامنة فى أبناء الجيل الاسلامى الحاضر • ان الايمان والالحاد ينتقلان فى أغلب الاحيان الى الانسان عن طريق بيئته الثقافية •• ولا شك أن الجو الدينى فى كثير من بيوت المسلمين قد بلغ من الإنحطاط والانحلال الفكرى حدا أغرى أبناء المسلمين الأحداث على اهمال الدين • أما فى حال تعليم ناشئة المسلمين على أسس غربية ، فان التأثير سيكون على الأرجح موقفا عدائيا من دينهم (١٦٠) •

ومحمد أسد يبين فى وضوح ان رفضه لتعليم ابناء المسلمين تعليما غربيا ، لا يعنى أبدا أن الاسلام يعارض التعليم فى ذاته ، وقد أورد

---

(١٥٩) المرجع السابق ، ص ٦٦ •
(١٦٠) نفسه ، ص ٦٧ — ٦٩ •

العديد من آيات القرآن والأحاديث النبوية التى تثبت حث الاسلام على تحصيل العلم والبحث العلمى ، كما استعرض تاريخ المسلمين فى هذا المجال ، وهو يرى ان الاسلام لم يقف يوما ما سدا فى وجه التقدم والعلم ، بل انه يكرم العلماء الى درجة أعلى من درجة الملائكة . وهذا يعنى أن سبب الانحلال والتخلف العلمى الحاضر لا يرجع الى نقص فى التعاليم الاسلامية ، انما يرجع الى اهمال المسلمين وتراخيهم . ان المسلمين اذا عملوا بأركان دينهم ، فانهم لا يستطيعون أن يهجروا التعليم الحديث فى حياتهم ، فلابد أن يصبحوا أكفاء كالشعوب الغربية ، ولكن الشىء الوحيد الذى ينبغى أن يتجنبوه هو : النظر بعيون غربية ، واتخاذ نفس الآراء الغربية (١٦١) .

ومحمد أسد يرى أن المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية ، انما هى عامة . ولكن وجهة النظر التى ترى منها هذه الحقائق وتعرض — تختلف باختلاف المزاج الثقافى فى الشعوب . ومن هنا فان دراسة العلوم الحديثة التجريبية ليست هى المضرة بالحقيقة الثقافية فى الاسلام . وانما المضر هو روح المدنية الغربية التى يقترب المسلم بها الى تلك العلوم (١٦٢) . ومهما كان تخلفنا العلمى كبيرا عن الشعوب الغربية ، واضطرارنا لدراسة العلوم الحديثة عن طريق المجارى التعليمية فى أوروبا ، فلا ينبغى ، فى دراستنا لها أن نخضع خضوعا يسترقنا للاتجاه العقلى فى الغرب . ومحمد أسد يرى أنه لابد من اختيار ما ندرسه لابنائنا فى المدارس الاسلامية من النتاج العقلى فى الغرب . وفى هذا الصدد لا يضع قيودا على اختيار العلوم الطبيعية والرياضيات فى أشكالها الخالصة والتجريبية ، مع الاحتفاظ بالموقف الآنف الذكر . أما فيما يتعلق بالفلسفة الأوروبية والأدب الأوروبى ، والتاريخ العام ، كما ترى كلها من وجهة نظر الغرب ،فانه يضع قيودا شديدة عليها قبل تدريسها

---

(١٦١) نفسه ، ص ٧٠ — ٧١ .

(١٦٢) نفسه ، ص ٧٢ .

لأبناء المسلمين : أما فيما يتعلق بالفلسفة الأوروبية ، فيجب أن يكون الموقف الاسلامى واضحا منها تماما منذ البداية • وفيما يتصل بالأدب الأوروبى : فهو يرى أن تعليمه بالطريقة التى تسود اليوم فى الكثير من المؤسسات الاسلامية يؤدى الى جعل الاسلام غريبا فى عيون الناشئة المسلمة • لأنه يبالغ فى تقدير قيمته بحيث يحمل العقول الناشئة الغضة ، بطبيعة الحال ، على أن تتشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء ، واندفاع كبير ، قبل أن يتاح لها التعرف على النواحى السلبية فيه معرفة كافية ، وبذلك لا تكون هناك عقبة أمام الشباب المسلم ليس فحسب لحب ذلك الأدب ، وانما كذلك للتقليد العملى لتلك المدنية الغربية التى لا يمكن أن تتفق مع روح الاسلام • وما يقترحه بهذا الصدد ، هو أن ترد دراسة الأدب الأوروبى الى حدود قيمتها الحقيقية ، أى اللغوية • وهو يرى أن الأفضل من كل ذلك أن ندرس لأبنائنا الأدب الاسلامى ، بحيث يتأثر منه الطالب بسعة أفق الثقافة الاسلامية وغناها، وهكذا يتسع فى نفسه الأمل، من جديد بحسن مستقبلها (١٦٣) •

أما دراسة (التاريخ العام) من وجهـة النظر الأوروبية ، فيراه خطيرا للغاية : لأنه يبرز النظرة العنصرية القديمة الموروثة عن الاغريق والرومان ، من تقسيم للعالم الى رومان وبرابرة • وهذا العرض للتاريخ على هذا النحو يطوى هدفا خفيا ، هو التدليل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شىء جاء ، أو يمكن أن يجىء الى هذا العالم • وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبى لسعى الأوروبيين الى السيطرة على غيرهم من الشعوب، والى القوة المادية• ومن هنا كان تاريخ الأوروبيين الوصفى للعالم ليس فى الحقيقة الا تاريخا مفصلا للغرب ، ولم يحسب لغير الشعوب الأوروبية حساب الا اذا كان لوجودهم وتقدمهم تأثير مباشر فى مصير أوروبا • وهكذا يظهر تقريبا ، كما لو أن العالم قد وجد من أجل أوروبا ، ومن أجل مدنيتها فقط ، كما لو أن سائر الشعوب والمدنيات قد

---

(١٦٣) المرجع السابق ، ص ٧٤ •

خلقت لتكون حواشي تناسب بهاء أوروبا وحدها • أما التأثير الوحيد الذى يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف فى عقول الاحداث الناشئة من غير الشعوب الاوروبية ، فانما هو شعور هذه الشعوب بالنقص ، فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة ، وبماضيهم التاريخى الخاص ، وبالفرص السانحة لهم فى المستقبل • وهكذا يربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم الا اذا كان مستقبلا مستسلما للمثل العليا الغربية (١٦٤) •

ومحمد أسد يرى آن علاج ذلك يكون عن طريق قيام العقلاء من قادة الفكر الاسلامى ببذل جهدهم لتعديل تعليم التاريخ فى المؤسسات الاسلامية • وهى مهمة شاقة ، ولكنها ممكنة ، وعلاوة على ذلك هى واجبة ، والا فان جيلنا الحديث سيستمر على التأثر بهذه التيارات الخفية التى تحمل اليه احتقار الاسلام ، وستكون النتيجة شعور بالنقص يتزايد يوما بعد يوم (١٦٥) •• واذا كانت هناك ضرورة الى طلب العلم من الخارج ، فلا ينبغى أن يحمل ذلك المسلم على اعتبار المدنية الغربية أرقى من مدنيته ، والا كان جاهلا بقيمة الاسلام •

ان تفوق ثقافة ما ، أو مدنية ما على غيرها لا يمكن أن يقاس بما لديها من معرفة مادية واسعة المدى ، ولكنه يقاس بما لديها من نشاط خلقى ، وباستطاعتها العظمى فى أن تعلل ، وفى أن توفق بين نواحى الحياة الانسانية كلها ، وفى هذه الناحية يسمو الاسلام على كل ثقافة أخرى • وهو يرى ان الاخلاق فى الاسلام وخصوصا فى ادراكها للسلوك الاجتماعى والشخصى وللعدل والحرية ، انما هى أكثر سموا ، وأحسن كمالا من المدنية الغربية ، بل من كل مدنية أخرى سابقة أو لاحقة (١٦٦) ومن هنا ، فان المسلمين عليهم ان يتبعوا أوامر الاسلام ، حتى يمكنهم ان

---

(١٦٤) نفسه ، ص ٧٥ — ٧٦ •

(١٦٥) نفسه ، ص ٧٦ •

(١٦٦) نفسه ، ص ٧٧ •

يبلغوا الى اقصى ما يستطيع البشر بلوغه • واذا أردنا أن نحفظ للاسلام قيمته ، وان نعمل على احيائها ، فلا ينبغى علينا أن نقلد المدنية الغربية• لأن الشر الذى يحدثه التأثير العقلى لتلك المدنية فى الجماعة الاسلامية ، لهو أبعد مدى من الفائدة المادية التى تستطيع تلك المدنية أن تمن علينا بهـــا (١٦٧) •

وهذه الانظار التى اصطنعها محمد أسد فى نظم التربية ، ومناهج العلوم ، التى تدرس فى المؤسسات التعليمية الاسلامية ، اهتم بها كثير من شخصيات الفكر الاســلامى المعاصر : فقد اقتبس أبو الحســن الندوى ــ كالعادة ــ نصوصا طويلة (١٦٨) من محمد أسد فى حديثه عن نتائج نظام التعليم الغربى فى الشرق • وكذلك فعل الدكتور عبد المنعم النمر فى حديثه عن (حضارتنا وحضارتهم) وأثر الفكر الغــربى على الشباب المسلم • (١٦٩) بل لقد أصبح الحديث فى هذا المجــال يمثل تيارا رئيسيا من تيارات الفكر الاسلامى المعاصر ، ويحمل اسم (أسلمة المعرفة) ، بل لقد جعل ذلك أحد الأهداف الرئيسية (للمعهد العالمى للفكر الاسلامى) ، وصدر عن هذا المعهد ، فى هذا المجال ، المؤلفات التـــالية :

ــ الدكتور / اسماعيل الفاروقى : (أسلمة المعــرفة) ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، نشر دار البحوث العلمية ، الكويت ١٩٨٤ • وهو يعرض تقريبا نفس الخط الفكرى التربوى لمحمد أسد •

ــ د / عبد الحميد سليمان : (دليل مكتبة الأسرة المسلمة) طبع واشنطن د • ت • وعنوانه يدل على محتواه •

---

(١٦٧) نفســه ، ص ٧٨ •

(١٦٨) انظر : ابو الحسن الندوى : الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص ١٦٥ ــ ١٦٧ ، القاهرة ، ١٩٧٧ م •

(١٦٩) انظر : د • عبد المنعم النمر : حضارتنا وحضارتهم ، ص ٦٥ ــ ٦٦ • سلسلة (كتابك) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ م •

وأصبح مصطلح (الغزو الفكرى) يطلق على اقتباس اسلوب العلوم الغربية وموادها فى الأوساط التعليمية الاسلامية ، الى جانب وسائل أخرى • وهذا بدوره أصبح مجالا بارزا من مجالات الفكر الاسلامى المعاصر •

وبانتهاء محمد أسد من الحديث عن تربية النشىء الاسلامى ، فانه يولى شطر الحديث نحو تقليد المسلمين للغرب والغربيين ، فعلينا أن نتابعه فى ذلك :

مخاطر تقليد المسلمين لطريقة الحياة الغربية :

ومحمد أسد يرفض بشدة تقليد المسلمين لطريقة الحياة الغربية ، لأنه أعظم الأخطار التى تستهدف لها الحضارة الاسلامية :

وهو يعتبر أن تقليد عادات الغرب وزيه فى الحياة يجعل المسلمين تدريجيا مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية • فمكمن الخطورة ، إذن ، فى تقليد المظاهر الخارجية ، هو أن ذلك يقود شيئا فشيئا الى تقبل الميل العقلى المناظر لذلك (١٧٠) • وهو غير مستعد للدخول فى جدل عقيم كما يفعل بعض المتنورين المسلمين الذين يزعمون أن المسلمين لن يتعرضوا لعواقب روحية من أى نوع فيما لو ساروا فى طريق التقليد • وهو يعتبر أن ذلك جهل وقصر نظر بطبيعة الاسلام ، وطبيعة المدنية الغربية : فاننا لو تجاهلنا الكثير من الأشياء الغربية التى تشكل جزءا أساسيا من كيانه الاجتماعى والاقتصادى — كالحرية فى المباشرة الجنسية مثلا ، أو الربا الذى يعتبر أساسا للجهود الاقتصادية — والتى تتنافى مع تعاليم الاسلام بصورة قاطعة ، فلن نستطيع أن نتجاهل خطورة الاتجاه العام للمدنية الغربية ، القائم على منع التوجيه الدينى فى الانسان منعا باتا ••• ومن المستحيل أن يعجب المسلم بروح مدنية مناهضة للتوجيه الدينى ، ويبقى

---

(١٧٠) الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٧٨ •

مع ذلك مسلما صحيحا (١٧١) .

وهو يصف بالسطحية من يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويعتقدون أنه من الممكن تقليد مدنية فى مظاهرها الخارجية دون تأثر بروحها . لأن المدنية ليست شكلا أجوف فقط ، ولكنها نشاط حى ، فما أن يبدأ الانسان بتقبل شكلها حتى تعمل فيه مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة ببطء ، ومن غير أن يلحظ ذلك ، ثم تخلع على اتجاهه العقلى كله شكلا معينا . ومن هنا كان قول الرسول ﷺ (من تشبه بقوم فهــو منهم) ، وهو تعبير ايجابى يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التى يقلــدونها (١٧٢) .

فالمســلم الذى يحاكى أوروبا فى لباسها ، وعاداتها ، وأســلوب حياتها ، فانه يتكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية ، مهما كانت دعواه التى يعلنها . فمن المستحيل عمليــا تقليد مدنية أجنبية فى مقاصــدها العقلية والبديعية من غير اعجاب بروحها ، وانه لمن المستحيل أن يعجب الانســان بروح مدنية مناهضة للتوجيه الدينى ، ويبقى مــع ذلك على اســلامه الصحيح (١٧٣) .

فمحمد أسد ، إذن ، يفزع أشد الفزع من تقليد المسلمين للغرب حتى فى النواحى الشكلية ، لان ذلك سينتهى بالمسلمين الى اعتناق روح الغرب ونظرته للأمــور .

وهو يعتبر أن نزعة التقليد ترجع لعدة أسباب أهمها ، سببان :

أولهما : الشعور بالنقص لدى المسلمين الذين يقلــدون المدنية الغربية . فهم يقارنون بين قوتها وقدرتها الفنية ، ومظهرها البراق وبين

---

(١٧١) نفســه ، ص ٨١ ــ ٨٣ .

(١٧٢) نفســه ، ص ٨٢ .

(١٧٣) نفســه ، ص ٨٢ ــ ٨٣ .

البؤس المحزن الذى ألم بالعالم الاسلامى ، والنتيجة التى سيخرجون بها هى أنه لا سبيل الا سبيل الغرب ، ولابد أن يلام الاسلام على تقصير المســلمين .

وعلاج هذا المرض — الشعور بالنقص — لدى محمد أسد هو : أن يعيش المسلم عالى الرأس ، ويتحقق بأنه متميز ومختلف عن سائر الناس ، وعليه أن يكون عظيم الفخر لأنه كذلك ، كما أن عليه أن يكـد ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صــفة غالبة ، وأن يعلن ذلك على الناس بشجاعة بدلا من أن يعتذر عنه بينما هو يحــاول أن يذوب فى منــاطق ثقافية أخــرى (١٧٤) .

ثانيهما : جهل المسلمين بتعاليم الاسلام ، وذلك يرجع فى الغالب الى ضيق الافق الفكرى فى الفقهاء المعاصرين ، ونتج عن ذلك ظهــور الفكرة القائلة بأن المسلمين لا يستطيعون مسايرة الرقى الذى نراه فى سائر انحاء العالم ما لم يتقبلوا القواعد الاجتماعية والاقتصــادية التى قبلهــا الغرب (١٧٥) .

وهو يرى أن التبعة فى ذلك الجهــل والخلط تقــع على كاهــل (المتنورين) من المسلمين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى التبعة التى يتحملها الاسلام ، على أنه عقيدة ، فى تأخر المسلمين . ولم يحاولوا معرفة موقف الاسلام الحقيقى ، أى كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، ولكنهم اكتفوا من ذلك كله ، باعتبار تعاليم فقهائهم المعاصرين سدا منيعا فى وجه الرقى والتقدم المادى . والخطأ ، إذن ، هو تجاهل المصادر الأصلية فى الاسلام ، واعتبارها هى والفقه المتحجر للفقهاء المعاصرين شيئا واحدا . وبذلك حملوا الأول نقص الثانى وقصوره ، ومن هنا فقدوا كل اهتمام عملى بالشريعة الأصيلة للاسلام ، وأحالوها

---

(١٧٤) نفســه ، ص ٨٣ — ٨٤ .
(١٧٥) نفســه ، ص ٧٩ .

الى حقل التاريخ ، والمعرفة المدفونة فى الكتب • ثم بدا لهم أن تقليد المدنية الغربية هو المخرج الوحيد من ورطة الانحلال الاسلامى (١٧٦) •

فالعلاج ، اذن ، كما يراه محمد أسد هو الرجوع الى المصادر الأصلية للاسلام ، وليس تأويلات الفقهاء المعاصرين ، وتشقيقاتهم ، وشروحهم ، وهذا الرجوع سييسر للمسلمين التحقق من روعة المنهج الاسلامى فى الحياة وعظمته ، وهو يقول :

« ••• ففى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى فى كل ما وصل اليه مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهاج الاسلامى فأين ما يبرر القول اذن بأن الاسلام قد ذهبت أيامه ؟ أذلك لان أسسه دينية خالصة ، والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟ ولكن اذا رأينا أن نظاما بنى على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجا عمليا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الانسان من كل شىء آخر يمكن للعقل البشرى أن يأتى به من طريق الاصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة فى ميزان النظرة الدينية ؟ » (١٧٧) •

لقد عانى محمد أسد كثيرا ، وشعر بالحزن والأسى لمظاهر التغريب ، وهو الخبير بها ، التى شاهدها فى بلاد الاسلام ، فعبر عن ذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفاته : فهو يقول تارة : « ••• الى متى يستطيع زيد ، وقوم زيد أن يحتفظوا بتماسكهم الروحى فى وجه الخطر الذى يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر ، وصورة لا تعرف الرحمة أو اللين ؟ نحن نعيش فى زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكنا سلبيا فى وجه الغرب الآخذ بالاطباق عليه • أن آلافا من القوى — السياسية والاجتماعية والاقتصادية — تطرق أبواب العالم الاسلامى ، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم الى حضارة الغرب ، ويفقد خلال التفاعل ، لا أشكاله وأنظمته

---

(١٧٦) المصدر السابق ، ص ٧٩ — ٨٠ •
(١٧٧) نفسه ، ص ١١٣ •

أسـبابه ••• » (١٨٣) •

وسـائل العـلاج :

ورغم هذا المصير الرهيب ، أو الدرك الأسفل من الاذلال الذى يمر به المسلمون الآن — حسب تعبير محمد أسد — إلا أن الفرصة مازالت سانحة للاصلاح واحياء الاسـلام ، وذلك عن طريق اصـلاح أنفسنا وموقفنا من الدين ، بمعالجة كسلنا وغرورنا وقصر نظرنا نحن ، وباختصار : معالجة مساوئنا نحن ، لا المساوىء المزعومة فى الاسلام • فلا حاجة لفرض اصلاح على الاسلام ، كما يظن بعض المسلمين ، لأن الاسـلام كامل بنفسه من قبل • ولكى نصل الى أحياء اسلامى فلا حاجة للبحث عن مبادىء جديدة فى السلوك نأتى بها من الخارج ، أن ما نحتاجه فقط هو الرجوع الى تلك المبادىء القديمة المهجورة فنطبقها من جديد • إن الاسلام كمؤسسة روحية واجتماعية غنى عن كل تحسين ، وتجاهل ذلك سيرجع بالخسارة علينا نحن • وقد نقبل بواعث جديدة من الثقافات الأجنبية ، ولكننا لا نستطيع أن نتبدل بالبناء الاسلامى الكامل شـيئا ما أجنبيا ، سواء علينا أجاءنا من الغرب أم من الشرق » (١٨٤) •

— ومحمد أسد يرى — فى سلسلة أفكاره لانقاذ مستقبل الاسلام وإحيائه — أن على المسلمين التمسك بسنة الرسول ﷺ ، والعمل بها على وعى منهم وعزيمة ، لأن السنة تعارض الآراء الأساسية التى تقوم عليها المدنية الغربية (١٨٥) • فالسنة ليست الا تعاليم الاسلام نفسها قد وضعت موضع العمل بها ، فباتخاذنا اباها الكلمة الفصل فى الاختيار، وبتطبيقها على كل ما تتطلبه حياتنا اليومية نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث التى ترد علينا من المدنية الغربية ، وما يجب أن نتقبله منهـا

---

(١٨٣) نفسـه ، ص ١١٥ •
(١٨٤) نفسـه ، ص ١١٣ — ١١٤ •
(١٨٥) نفسـه ، ص ٩٩ — ٩٨ •

أو أن نرفضه • وبدلا من أن نخضع الاسلام باستخذاء للمقاييس العقلية الأجنبية ، يجب أن ننظر الى الاسلام على أنه المقياس الوحيد الذى نحكم به على العـــالم (١٨٦) •

ـــ وعلى المسلمين كذلك أن ينفضوا عن أنفسهم روح الاعتـــذار ، الذى هو اسم آخر للانهزام العقلى فيهم أو هو قناع لتشاؤمهم ، أو عقـــدة النقص •

ـــ وعلى المسلمين أن يعودوا للمصادر الأصلية للاسلام ، وينفضوا عن الشريعة تلك الطبقة الكثيفة من التأويلات العرفية التى تراكمت فى خلال العصور ، حتى وصلت الينا فى صورة أحكام فقهية ناقصة • ونتيجة ذلك يمكن أن يكون بزوغ فقه جديد يتفق تماما مع مصدرى الاسلام : القرآن والسنة ، وفى الوقت نفسه اجابة لدواعى الحياة المعاصرة ، بمثل ما أجابت أوضـــاع الفقه القديم داعى الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية المحدثة ، ووافقت أحوال الحيـــاة التى ســـــادت قبل عصر الثـــورة الصـــناعية (١٨٧) •

وعلى هذا النحو تسير رؤية محمد أسد لمشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة من قضية تقليد الغرب ، وبالتالى مستقبل الاسلام والمسلمين ، ولا جدال فى أنها أكبر التحديات التى تواجه المسلمين فى الوقت الحاضر ، وتسير كذلك حلوله لهذه المشكلات ، وهى حلول ناجحة تماما •

واختيار جانب الهجوم على الغرب ومفاهيمه ، وقيمه ، وفلسفته المادية ــ هو الجانب الذى اختارته الجماعة الاسلامية فى الهند والباكستان ومؤسسها الاستاذ أبو الأعلى المودودى ، وفضلته على طريقة الدفاع عن الاسلام ، والتماس العذر له وتبرير موقفه بالملابسات التى اكتنفت

---

(١٨٦) نفســه ، ص ١١٦ •
(١٨٧) نفســه ، ص ١١٦ ــ ١١٧ •

عصره وبيئته • ولا شك أن هذا الاسلوب والمنهج مأخوذ عن محمد أسد (١٨٨) • رغم أنه كان معاصرا لأبى الأعلى المودودى ، عن قصور اقبال • وقد تحدث محمد اقبال ، كما تحدث المودودى ، عن قصور الحضارة الغربية ، ونقدها كل منهما (١٨٩) ، لكن تبقى حرارة النقد وحميته وأصالته لمحمد أسد لا ينازعه أحد فى هذا المجال • وقد نقل الدكتور / عبد المنعم النمر العديد من نصوص محمد أسد فى حديثه عن تقليد المسلمين للغرب (١٩٠) • والآن اذا قومنا بفكر محمد أسد ، ودوره فى الفكر الاسلامى المعاصر فلابد أن نعود الى التنويه بعرضه القوى الجميل لحركة الاسلام فى دائرتى الروح والبدن ، ومناقشته لمشاكل الحضارة الغربية وأوجه قصورها ، وكذلك أسباب كراهية الغرب للاسلام وللشرق الاسلامى ، وجذور هذه الكراهية • وكذلك مسالب اليهودية والنصرانية • وأخيرا ، تشخيصه لانحلال المجتمعات الاسلامية المعاصرة، وصلة ذلك بموجات التغريب سواء عن طريق التعليم الغربى ، أو عن طريق تقليد المسلمين للغربيين ، فى السلوك والروح الأوروبية ، وخطورة ذلك على مستقبل الاسلام ، ومقترحات العلاج ، وإحياء الاسلام •

وقد أخذت هذه الأفكار — أو معظمها — طريقها الى عقول المفكرين المسلمين المعاصرين ، وقد ذكرت نماذج متفرقة ، ويمكن أن أضيف اليها نماذج أخرى كـ : مالك بن نبى (١٩١) ، وكذلك د/ فتحى عثمان (١٩٢) ومحمد قطب (١٩٣) •

---

(١٨٨) أبو الحسن الندوى : الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص ٩٦ •

(١٨٩) المرجع السابق ، ص ٨٢ وما بعده •

(١٩٠) انظر : حضارتهم وحضارتنا ، ص ٦٦ وما بعدها •

(١٩١) انظر : الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ، ص ٥٦ وما بعدها ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٧٩ م •

(١٩٢) انظر : الفكر الاسلامى والتطور ، ص ١٠٦ ، ١١٠ القاهرة ، دار القلم ، د • ت •

(١٩٣) انظر : الانسان بين المادية والاسلام • ص ٢٨ ، القاهرة ١٩٨٠ م

وهذه فى الحقيقة — كما قلت — ليست الا نماذج ، ومن الصعب اجراء تحديد دقيق لهذا الجانب • ولكن لا أحد منا ، نحن الدارسين المتخصصين فى الفكر الاسلامى المعاصر — يمكن أن ينكر أهمية فكر محمد أسد عموما ، وآرائه فى الجانب الدينى بصفة خاصة ، وما يتصل منها بالحضارات بصفة أخص •

ان البحث الحالى ، ما هو الا اسهام بسيط فى التعريف بمحمد أسد ، وبأهم أفكاره فى الجانب الدينى وبالتالى دوره فى الفكر الاسلامى المعاصر• وعلى الباحثين المتخصصين ، الذين يؤرخون للفكر الاسلامى المعاصر ، أن يعيدوا ترتيب أوراقهم ، بحيث يوضع محمد أسد فى دوره اللائق به ، بين الشخصيات الكبرى فى الفكر الاسلامى المعاصر •

والله ولى التوفيـق

مصـــــادر البحث ومراجعـه

١ ــ **القــرآن الكــريم** •

٢ ــ د • اسماعيل الفاروقى : (أسلمة المعرفة) ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، نشر دار البحوث العلمية الكويت ١٩٨٤ م •

أبو الحســن النــدوى :

٣ ــ ماذا خسر العــالم بانحطاط المسلمين ، القاهــرة ، ١٩٦٤ م • ط الخامســة •

٤ ــ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، القاهرة ١٩٧٧ م •

٥ ــ الســيد الشريف الجرجانى : شرح المواقف ، الموقف الخــامس (الالهيات) ، تحقيق د • أحمد المهدى • القاهرة ١٩٧٦ م •

٦ ــ د • عبد الحليم محمود : أوروبا والاسلام ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ م •

٧ ــ د • عبد الحميد أبو سليمان : دليــل مكتبــة الأسرة المسلمة • ط واشنطن د • ت •

٨ ــ د • عبد المنعم النمر : حضارتنا وحضارتهم • دار المعارف سلسلة (كتابك) ، القاهرة ١٩٧٨ م •

٩ ــ د • فتحى عثمان : الفكر الاســلامى والتطور • القــاهرة ، دار القــلم ، د • ت •

١٠ــ مالك بن نبى : الصراع الفكــرى فى البــلاد المستعمرة • ط • طرابلس ، لبنان ١٩٧٩ م •

محمــد أســد :

١١ــ The Road to Mecca Ed. Tangier, 1974. وقد طبع للمــرة الأولى بنيويورك ١٩٥٤ م • وله ترجمة عربية قام بها الاستاذ

عفيفى البعلبكى ، ولكنها غير دقيقة ، وبها أخطاء كثيرة ، ولذلك آثرنا الاعتماد على النص الأصلى بالانجليزية ، مع الاستفادة بالترجمة .

١٢ــ الاسلام على مفترق الطرق . ترجمة د . عمر فروخ ، ط الثامنة بيروت ١٩٧٤ م . وقد صدر الكتاب الأصلى للمرة الأولى عــام ١٩٤٦ م .

١٣ــ منهاج الاسلام فى الحكم . ترجمة منصور محمد ماضى ، بيروت ط الرابعة ١٩٧٥ م . وصدرت الطبعة الأولى من الترجمة عــام ١٩٥٧ م .

١٤ــ مقترحات فى الدستور . ط كراتشى . د . ت .

١٥ــ الاسلام فى تصور كاتب أوروبى مسلم (القسم الثانى من كتاب : الاسلام فى الفكر الغربى . عرض ومناقشة د . محمود حمدى زقزوق . ط ثانية ، الكويت ، دار القلم ١٩٨١ م .) .

د . محمــد البهــى :

١٦ــ حياتى فى رحاب الأزهر ، القاهرة ١٩٨٣ م .

١٧ــ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . القــاهرة ، ١٩٧٥ م .

١٨ ــ الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر ، مشكلات الحكم والتوجيه . القــاهرة ، د.ت .

١٩ ــ محمــد جلال كشــك : السعوديون والحل الاســـلامى . ط واشنطن ، د.ت.

٢٠ ــ محمد قطب : الانســان بين المادية والاســلام . القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٠ م .

٢١ ــ د . محمود حمدى زقزوق : الاسلام فى الفكر الغربى . ط ثانية ، الكويت ، دار القــلم ، ١٩٨١ م .

محتويات البحث

شركة سعيد رأفت للطباعة
شارع خالد بن الوليد - أمام فندق السلام
تليفون : ٢٥٨٩٩٣٢٠

Bibliotheca Alexandrina
0223644
.07